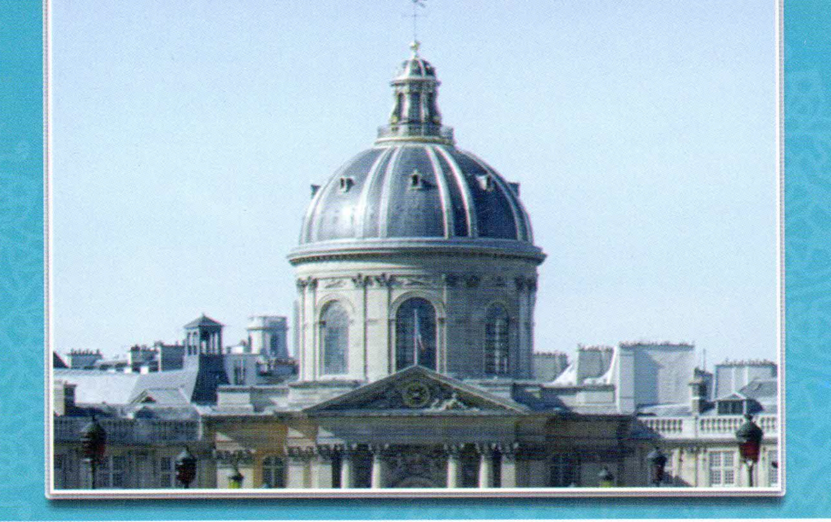


رؤساء المجامع اللغوية العربية





هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب تعريفًا بعشرة من رؤساء مجامع اللغة العربية، من خلال بابين، يضم الباب الأول كلماتى التى ألقيتها فى استقبال رؤساء مجامع الجزائر وليبيا والسودان وسورية، عند انتخابهم أعضاء فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وقد صيغت فصول الباب الأول على هيئة «كلمات مجمعية» من التى تلقى فى استقبال العضو الجديد فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهى كلمات تجمع بين عناصر التعريف والتكريم والتأريخ كما تثبت للمستقبَل (أو العضو الجديد) مكانة فى الدراسات اللغوية أو الجهود اللغوية، وتعبر عن الأمانى التى يعقدها مجمع اللغة العربية على انتخابه ليكون فى ركاب الخالدين.

ومن حسن حظى أننى كنت العضو الذى كلفه المجمع باستقبال هؤلاء الأعضاء الأربعة الجدد، الذين يشغلون رئاسات المجمع فى هذه الأوطان العربية العزيزة علينا، وقد اختلفت مسيراتهم فى الحياة قبل أن يصلوا إلى هذه المكانة المجتمعية الرفعية.

رُؤَسَاءُ المجَامِعِ
اللّغَوِيَّةِ العَرَبِيَّة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م



٩٧ شارع المنتزه ـ ميدان ألف مسكن ـ مصر الجديدة

تليفون وفاكس : ٢٦٣٧٣٢٧٢ ـ ٠١٠٠١٦٣٣٧١٨ ـ ٢٦٣٧٤٢٧٣

Email: <shoroukintl@hotmail.com>

http://shoroukintl.com

د. محمد الجوادى





البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

الجوادي، محمد.

رؤساء المجامع اللغوية العربية/ محمد الجوادي.

ط١ . ـ القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤م.

١٠٠ ص؛ ٢٤سم.

تدمك 978-977-701-137-2

١ ـ اللغويون العرب.

٢ ـ المجامع اللغوية.

أ ـ العنوان ٩٢٤,١

رقم الإيداع ٢٥٨٥٧/ ٢٠١٤م

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 701 - 137 - 2

إهـــداء

إلى الصديق الكريم

الدكتور أحمد شفيع عمار

المحتويات

إهداء ٥

هذا الكتاب ٩

● الباب الأول: كلمات فى استقبال رؤساء المجامع العربية فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٣

الفصل الأول: الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح (الجزائر) ١٥

الفصل الثانى: الدكتور على فهمى خشيم (ليبيا) ٢٣

الفصل الثالث: الدكتور على أحمد بابكر (السودان) ٣١

الفصل الرابع: الدكتور مروان المحاسنى (سوريا) ٣٩

● الباب الثانى: فصول متفرقة عن رؤساء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٥١

الفصل الخامس: الدكتور محمد توفيق رفعت ٥٣

الفصل السادس: الدكتور أحمد لطفى السيد باشا ٥٦

الفصل السابع: الدكتور طه حسين ٦٩

الفصل الثامن: الدكتور إبراهيم بيومى مدكور ٧٦

الفصل التاسع: الدكتور شوقى ضيف ٨٢

الفصل العاشر: الدكتور محمود حافظ ٩٣

● كتب المؤلف ٩٨

هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب تعريفًا بعشرة من رؤساء مجامع اللغة العربية، من خلال بابين، يضم الباب الأول كلماتى التى ألقيتها فى استقبال رؤساء مجامع الجزائر وليبيا والسودان وسورية، عند انتخابهم أعضاء فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وقد صيغت فصول الباب الأول على هيئة «كلمات مجمعية» من التى تلقى فى استقبال العضو الجديد فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهى كلمات تجمع بين عناصر التعريف والتكريم والتأريخ كما تثبت للمستقْبل (أو العضو الجديد) مكانة فى الدراسات اللغوية أو الجهود اللغوية، وتعبر عن الأمانى التى يعقدها مجمع اللغة العربية على انتخابه ليكون فى ركاب الخالدين.

ومن حسن حظى أننى كنت العضو الذى كلفه المجمع باستقبال هؤلاء الأعضاء الأربعة الجدد، الذين يشغلون رئاسات المجمع فى هذه الأوطان العربية العزيزة علينا، وقد اختلفت مسيراتهم فى الحياة قبل أن يصلوا إلى هذه المكانة المجتمعية الرفعية، فالدكتور عبد الرحمن الحاج صالح لغوى معنىٌ بدراسات الذخيرة اللغوية ومتن اللغة، كما أنه معنىٌ أيضًا بصوتيات اللغة وتعريفاتها ومقارناتها باللغات الحية الأخرى، أما الدكتور على فهمى خشيم رئيس مجمع اللغة الليبى فقد خرج من نطاق دراساته فى الفلسفة والتصوف والمذاهب إلى نطاق دعا فيه إلى البحث عن علاقات اللغات القديمة بالعربية، ومضى فى هذا السبيل خطوات واسعة مثبتًا ومستشهدًا ومستنبطًا ومستنتجًا.

أما الدكتور على أحمد بابكر رئيس مجمع اللغة العربية بالخرطوم فقد ارتبطت دراساته بالإسلاميات والشريعة الإسلامية، والفقه وأصوله، مع شاعرية ملهمة وعناية فائقة بالدراسات الجامعية فى محيط الدراسات الإسلامية على وجه العموم، أما الدكتور مروان المحاسنى رئيس مجمع دمشق فواحد من أبرز المجمعيين المعجميين الذين عنوا بالمصطلح وصياغته، وأنتجوا فى هذا الميدان نتاجا متصلا منذ بدأت إسهاماته فيه.

ليست هذه المقدمة مجالا لتلخيص حياة الأعلام الأربعة، فهى مبسوطة فى صفحات هذا الكتاب الصغير الذى يتحدث حديثًا مرهفًا عن شخصيات ذات أثر بارز وعطاء متميز، ورؤية قادرة على تغيير الواقع اللغوى إلى ما يرتفع بالثقافة العربية فى عصر تحتاج الثقافة العربية فيه إلى الارتفاع والسمو بقدر ما فى شخصيتها من ارتفاع وسمو.

أما الباب الثانى فيضم فصولًا متنوعة عن شخصيات عظيمة قدر لها أن ترأس مجمع اللغة العربية فى القاهرة، فالفصل الخامس الخاص بالأستاذ محمد توفيق رفعت كان نواة لمادتين موسوعيتين كتبتهما عنه، والفصل السادس الخاص بالأستاذ أحمد لطفى السيد هو تعريف كلى بالرجل ومناصبه وإسهاماته وتاريخ حياته وتوجهاته السياسية والعلمية والحزبية والإدارية، وقد كتبته خصيصًا لهذا الكتاب بعد أن رأيت مدى الاضطراب فى تسجيل حياة هذا الرجل العظيم، وكنت قد كتبت عنه أكثر من مادة موسوعية، كما ألقيت عنه أكثر من محاضرة لكننى فوجئت بالذين يشاركوننى المواسم الثقافية والندوات العالمية وهم يقدمون ويؤخرون وتختلط عليهم بعض التفصيلات إذا أرادوا التعريف بالرجل، ولهذا كتبت هذا الفصل على هذا النحو الذى أرجو أن يكون وافيًا ودقيقًا وأشمل من المواد الموسوعية التى كتبتها عنه من قبل، وقد كان لى الشرف أن اشتركت فى إعادة نشر تراثه بإعادة طباعة أعماله فى الهيئة العامة للكتاب حين توليت الإشراف على خطة النشر، وقد نفدت النسخ المطبوعة من هذه الأعمال فى يوم صدورها، وأرجو الله أن يتاح لى أن أعيد نشرها مرة أخرى.

أما الفصل السابع الخاص بالدكتور طه حسين فهو المقال الذى نشرته فى سلسلة روزاليوسف عن عظماء المصريين، وقد شرفت بتكليفى بالكتابة عن طه حسين والعقاد ومصطفى عبد الرازق وعزيز المصرى، وقد آثرت أن أتركه على نحو ما كتبته لتبقى فيه نكهته التى لا أظننى أقدر على استعادتها اليوم، والمقال أقرب إلى المسح الجوى الحديث الذى يصف المعلم موضحًا بدقة شديدة تحددها الإحداثيات المنضبطة ويحسب حساب كل شىء، ومع هذا فإن المقال يصور الارتفاع والمداخل على نحو لا تتمكن منه نظم المعلومات الجغرافية المتعددة الآن.

أما الفصل الثامن الخاص بالدكتور إبراهيم مدكور فهو شبيه بالفصل السادس من ناحية، وبالسابع من ناحية أخرى، فقد كانت معرفتى بالراحل العظيم ونصائحه لى كفيلتين بأن توجهانى إلى مثل هذه الندرة فى الإبانة عن فضله فى سياق التاريخ الثقافى، وإن كنت أعتز فى

حياتى بتعليقات جميلة فإنى لا أزال أذكر تعليق العلامة الأستاذ محمود شاكر فى مديح المقال الذى رثيت به الدكتور إبراهيم مدكور فى جريدة الأهرام.

أما الفصل التاسع الذى خصصته للدكتور شوقى ضيف فهو باقة من باقات الزهور أرد بها بعض فضله علىّ أسبوعًا بعد أسبوع فى جلسات مجلس مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ولا أظنني قادرًا على رد بعض فضله، والفصل تعريف موجز ودقيق بالرجل وحياته وإنجازاته دون خروج عن مسار جميل رزقه الله ووفقه فيه حتى أبدع ما أبدع وأنتج ما أنتج، وكنت قد كتبت عنه الباب الأول من كتابى «تكوين العقل العربى» كما كتبت عنه موادًا موسوعية ومقالات احتفالية.

ويأتى الفصل العاشر الذى خصصته للدكتور محمود حافظ لبيلور وصفًا دقيقًا لشخصية فريدة من دون أن يشغل القارئ بإنتاجها ولا مساراتها معتمدًا على استنباط ما يستظهر واستظهار ما يستنبط من أستاذ عظيم عرفته منذ ١٩٧٧ وحتى وفاته فى أعقاب ثورة يناير ٢٠١١، وارتقى بى فى مدارج الرقى من تلميذ التلميذ إلى التلميذ إلى الأستاذ المساعد إلى الأستاذ إلى الزميل الذى يستشيره فى كل شىء مع أنه لم يكن فى حاجه إلى مشورتى، لكنه التفضل الواثق منه.

والله، سبحانه وتعالى، أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه، وإن كنت أعلم عن نفسى أنى لا أخلو من الرياء فى كل ما أفعل.

والله،سبحانه وتعالى، أسأل أن يهدينى سواء السبيل، وأن يرزقنى العفاف والغنى، والبر والتقى، والفضل والهدى، والسعد والرضا، وأن ينعم علىّ بروح طالب العلم، وقلب الطفل الكبير، وإيمان العجائز، ويقين الموحدين، وشك الأطباء، وتساؤلات الباحثين.

والله،سبحانه وتعالى، أسأل أن يمتعنى بسمعى وبصرى وقوتى ما حييت، وأن يحفظ علىّ عقلى وذاكرتى، وأن يجعل كل ذلك الوارث منى.

والله، سبحانه وتعالى، أسأل أن يذهب عنى ما أشكو من ألم وتعب ووصب وقلق، وأن يحسن ختامى، وأن يجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم ألقاه.

والله، سبحانه وتعالى، أسأل أن يعيننى على نفسى وأن يكفينى شرها، وشر الناس، وأن يوفقنى لأن أتم ما بدأت، وأن ينفعنى بما علمنى، وأن يعلمنى ما ينفعنى، وأن يمكننى من

القيام بحق شكره وحمده وعبادته فهو وحده الذى منحنى العقل، والمعرفة، والمنطق، والفكر، والذاكرة، والصحة، والوقت، والقدرة، والجهد، والمال، والقبول وهو -جلّ جلاله- الذى هدانى، ووفقنى، وأكرمنى، ونعّمنى، وحبب فىّ خلقَه، وهو وحده القادر على أن يتجاوز عن سيئاتى وهى - بالطبع وبالتأكيد - كثيرة ومتواترة ومتنامية فله -سبحانه وتعالى- وحده الحمد، والشكر، والثناء الحسن الجميل.

د. محمد الجوادي

■ ■ ■

الباب الأول

كلمات
فى استقبال رؤساء المجامع العربية فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة

الفصل الأول

د. عبد الرحمن الحاج صالح

(الجزائر)

(١)

أساتذتى الأجلاء

أيها الزميل الكريم

أنت يا سيدى رجل مؤسس منشئ يهديك ربك إلى الفكرة الذكية فتسعى إلى أن توجد لها الكيانَ الذى يحميها وينميها، وتدركُ الهدف النبيل فلا تزال تجتهد حتى تجعلَ له على أرض الواقع كيانا ينتصر له ويقتصر عليه.

وأنت فى كَدْحك تؤمن بأثر الزمن وبتعضيده لك، لكنك تؤمن أن الزمن لن يعمل عمله إلا بعد أن تغرس البذور، ولهذا فإنك لا تلقيها إلا بعد أن تنتقيها، وأنت قد أجدت انتقاء البذور وتوقيت غرسها وأجدت قبل هذا وذاك أمرًا ثالثا لا يقل أهمية عن هذا وذاك حين نلت التوفيق فى اختيار أجود الأراضى لبنات فكرك فإذا بكل ما أسست من منظمات ومراكز ومشاريع يرتفع على أرض خصبة هى أرض العلم فى الجامعة.

ولابد لنا من أن نعترف لك بالذكاء حين أعرضت عن المسميات الكبيرة والمؤسسات العملاقة والدعايات الضخمة، وآثرت على هذا كله أن تكون كل مؤسسة تنشئها ذات اسم محدد، ووظيفة واضحة، وكيان ملائم للوظيفة وإذا بك تحلق من نجاح إلى آخر بفضل هذا الأسلوب الفذ الذى لا يُوفق إليه إلا الذين رزقوا أحلام العلماء، ووجدان الصوفية، وأفئدة الرياضيين وحظك من هذى الثلاثة كبير.

(٢)

أيها الزميل الكريم

قدر لك يا سيدى منذ أربعين عاما أن تمضى فى السلم الأكاديمى على نحو فريد لا يتاح للذين يبتليهم الزمان بأن تكون أستاذيتهم وظيفة يصّعدون فيها من منصب إلى ما يظنونه ويظنه الناس أعلى منه، وإذا القدر يهيىء لك الفرصة النادرة لأن ترتقى فى السلم الأكاديمى على نحو ما ينبغى للعالم أن يرتقى فى علمه بدرجات تترى تعلن عن مزيد من التخصص والتبحر، وتنبىء عن تنامى القدرة على النظر إلى العلوم الأخرى من نافذة ما تخصص فيه العالم الباحث الأستاذ ..

وهذا هو جوهر ما فعلت طيلة أعوامك الأربعين الماضية أو هو هو تمامًا بتمام.

فقد كنت منذ أربعين عاما رئيسا لدائرة اللسانيات وقسم اللغة العربية فى كلية الآداب فى الجامعة الأولى فى وطنك..

وبعد عامين توليت عِمادة هذه الكلية..

وبعد ثلاثة أعوام أخرى تركت هذه العمادة إلى عمادة معهد العلوم اللسانية والصوتية..

وقد قضى هذا المعهد المبتكر ثمانية عشر عامًا كاملة فى كنفك لا باعتبارك الأستاذ أو العالم أو العميد، وقد كنت كذلك بالفعل، ولكن باعتبارك الوالد الذى يتولى ولده الأثير برعايته المباشرة طيلة هذه الفترة التى تهيىء وتمهد لسن الرشد فإذا هو معنى بنموه وارتقائه على حد سواء.

(٣)

أيها الزميل الكريم

لقد كان من حسن حظ وطنك أن تُهيأ للعلم اللغوى فيه، هذا الابن الذى حظى برعاية والده وحدْبه عليه وتفرغه له طيلة هذه السنوات الثمانية عشر، ولا غرو أن يصبح معهدك بعد هذا، حين يقدر له الله أن يعود إلى سالف مجده وسابق عهده، من أكثر الكيانات العلمية العربية صحة، وأقواها بنيانا، وأسلسها نفسًا، وأخصبها عطاء، ولم لا وقد تمتع بأبوتك فى عقدى الفتوة من حياتك العلمية المباركة..

وما إن أشرقت سنُّك الذهبية وناهزت الستين إلا وآثرت أن تبدأ كيانا جديدًا يبدو للبيروقراطيين أقل نفوذًا ولكنه يتلألأ فى نظر العلماء أكثر نفاذًا... وهو يتلألأ لا لشىء إلا لوجودك على رأسه تبلور فيه خبرتك وتجاربك.

وإذا أنت تعمل طيلة خمس سنوات مديرًا لوحدة للبحث فى علوم وتكنولوجيا اللسان.

ثم إذا بهذا الموقع الرابع يقودك إلى منارة خامسة لا تزال تبذل لها ذؤابة قلبك الفتى منذ اثنى عشر عاما فإذا أنت مدير لأول مركز من نوعه فى وطننا العربى قصر نفسه بفضلك وفضل علمك على البحوث العلمية والتكنولوجية المتخصصة فى ترقية اللغة العربية.

(٤)

أيها الزميل الكريم

ها أنت معنى من خلال مواقعك هذه بمهام رفيعة القدر عظيمة الفائدة تتجلى فيها مرةً أخرى سمات ما وصفناك به أو قل ما أدركناه من شخصك من أنك منشئ مؤسس، ولم لا؟

ألم تتول بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم رئاسة اللجنة الدولية لمشروع الرصد اللغوى منذ منتصف السبعينيات وحتى منتصف الثمانينيات؟

ثم إذا بك تخرج بالمشروع الأول إلى آفاق أرحب فترأس منذ بداية التسعينيات وحتى الآن مشروعًا أوسع للذخيرة اللغوية العربية بعدما أتممت بنجاح جهودك فى الرصد اللغوى.

(٥)

وأنت أيها الزميل الكريم فى كل هذا لا تكشف لأبناء قومك عن ذخيرتهم اللغوية فحسب، ولكنك تفعل ما هو أعظم من هذا بكثير، أنت تنشئ لعلم اللغة العام فى العربية فلسفة وتاريخًا، وقليل ما هم مَنْ سبقوك إلى هذا المجد، وقليل ماهم مَنْ أدركوا ما أدركت أنت من حقيقة تفوق اللغويين العرب القدامى فى فهم أسرار علم اللغة العام..

ألست أنت الذى سبقت، بعد دراسة علمية لم تُسبق إليها، إلى القول بأن مفهومى الحرف المتحرك والحرف الساكن اللذين قال بهما اللغويون العرب القدامى أدق وأوعب من المفاهيم اليونانية؟

وألست أنت الذى أماط اللثام عن النظرية اللفظية الحراكية العربية من خلال قراءة حديثة لما كتبه الفارابى والرمانى وسيبويه؟

(٦)

ثم ألست أنت أيها الزميل الكريم الذى لفت أنظارنا إلى أن أوليات علم اللغة عند العرب قد اعتمدت على المعرفة المبنية على المشاهدة والتجربة، وأنها بفضل هذا قد توافقت مع ما توصل إليه البحث لا فى الصوتيات الحديثة فحسب، ولكن مع ما توصلت إليه بحوث التكنولوجيا اللغوية؟

ألست أنت الذى انتصر لمفهوم الحركة كما قال به الرمانى حين لفت النظر إلى دورين للحركة فى إحداث للحرف وفى التمكين له من الانتقال من مخرج حرف إلى مخرج حرف آخر؟

وألست أنت الذى ألقيت الضوء على قيمة ما سبق إليه الخليل بن أحمد من أن لكل حرف من حروف اللغة جرسا وصرفًا وأن الجرس هو ما يدرك من الحرف بالسمع وهو ما يخص الصوت فى حد ذاته، أو هو هُويته، وأن الصرف هو الحركة وهو ما يخص إحداث الحرف والخروج منه إلى حرف آخر؟

(٧)

ألست أنت الذى أبنت من دراسة هذا كله عن عبقرية التصور العربى للدينامية اللفظية الطبيعية وصورت الأمر بما أسميته «الإدراج» وشبهته لأمثالنا من تلاميذ علوم اللغة بأنه كحركة الصور فى الأفلام السينمائية لا انقطاع فيها بين صورة وأخرى إطلاقا، ونبهتنا بعد هذا إلى تفوق هذا التصور العربى على نظيره اليونانى الذى يجعل من الكلام مجرد تعاقب للعناصر الصوتية تقترن ببعضها دون أن يكون هناك إدراج للحركات المحدثة لها.

وأنت تدلنا على ما قال به روسلو وما قالت به معامل الصوتيات من أن التموجات الكلامية متصلة بعضها ببعض فى تعاقبها بدون أى انقطاع، وأن هذا التعاقب لا يتمثل على شكل اقتران أجزاءٍ بأخرى بل على شكل سريان اهتزازى مستمر؟

(٨)

أيها الزميل الكريم

أنت مع هذا كله مثل نادر للقارئ العبقرى لتراث أجداده العرب لا فى شوفونية الوطنيين ولكن فى شفافية العلماء الذين استنارت بصيرتهم بالعلم وبالتكنولوجيا.

وأنت شأنك فى هذا شأن نوابغ علماء اللغة الأفذاذ لا تقف عند النظريات اللغوية وإنما تجيد فهم علوم الفيزيقا والهندسة والتكنولوجيا وتعرف كيف تعول على التجريب والاختبار والإحصاء. وقد استوعبت ما قال به الخليل، وسيبويه، والفارابى، وابن سينا، والزجاج، والزجاجى، وأبو على الفارسى، وابن جنى، والأزهـرى، والمبرد، والأخفش، والفراء، وابن سيده، وابن خروف، والرازى، والسيوطى، وابن هشام، وابن مالك، والسراج، وابن كيسان، والسيرافى، والسخاوى، والرضى، والغزنى، وابن يعيش، وابن عبدالسلام الفاسى، والزمخشرى، والزركشى، والسرخسى، والجصاص، وأبو حيان، وأبو شامة، والقاضى عبد الجبار، ومكى بن طالب، والقرطبى، وابن مجاهد، وابن الجزرى، وابن خالويه، وأبو جعفر النحاس، وأبو عبيدة، والباقلانى، والقسطلانى.

كما استوعبت ما قال به روسلو ودى سوسير، ومارجريت ذوراند، وإشتراكا وأركباور، ووارن، واستاتكفيتش، وسبتلنى، وبلاردى، وديلاننى، ومالبنرج، وبالى، وبلومفيلد، وتشومسكى.

(٩)

وأنت أيها الزميل الكريم تدرك أوهام بعض العلماء المحدثين فتصححها بضوء ساطع قاطع كأنه الليزر، ومن قبيل هذا تصحيحك لما توهمه بعضهم من أن الحرف عند العرب هو الحرف الصامت فقط، ومن قبيل هذا أيضًا انتباهك لعبقرية أجدادنا فى التفريق بين عمليتى الوقف والتسكين، فكل موقوف عليه ساكن وليس كل ساكن موقوفا عليه، لأن الوقوف - كما تقول - يتم بزوال التوتر العضلى وانقطاع العمل التلفظى، أما الساكن فى الدرج فعلى خلاف ذلك.

وأنت على سبيل المثال تنبهنا إلى أن القدامى قد عرفوا جيدا دور الحنجرة فى إحداث الصوت.

ولا يقف تصويبك عند المحدثين وإنما تتصدى لبعض الفكرات الشائعة فى تراثنا فتصوبها، ومن هذا أنك لا ترى ما يراه بعض القدماء من أن الرومانى هو أول من مزج النحو بالمنطق، وعندك أن أول مَنْ فعل هذا هو السراج وابن كيسان وغيرهما فى نهاية القرن الثالث الهجرى.

(١٠)

أيها الزميل الكريم

قلتُ: إنك سبقت إلى فلسفة علم اللغة عند العرب، وأضيف الآن إلى هذا أنك سبقت أيضًا إلى تاريخ علم اللغة العام عند العرب، ويكفينى للتدليل على هذا دراستك القيمة عن أصول تصحيح القراءة عند مؤلفى كتب القراءات وعلوم القرآن قبل القرن الرابع الهجرى، فقد استقصيت فى هذه الدراسة تاريخ أكثر من علم من علوم اللغة، وقد تنبهت إلى أن كل من اشتغل بالنحو فى الصدر الأول كان من القراء ابتداء من أبى الأسود وانتهاء بالخليل بن أحمد، كما نبهت إلى أن مؤلفى كتب القراءات كانوا من النحويين واللغويين، ثم درست أصول تصحيح القراءة دراسة كرونولوجية عميقة وجميلة لم تُسبق إليها، وقارنت بين المناهج المختلفة للعلماء، وبحثت الأسباب التى دفعت إلى تفضيل كل منهم لمنهجه الذى اختطه.

وكان يكفيك كمؤرخ للعلم أن تقف عند هذا الحد، ولكنك لأنك منشئ كما قلنا فإنك لم تقف عند الرصد والتحليل والتسبيب ورسم الخريطة الكرونولوجية الجميلة، وإذا بك تكشف لنا عن فضل ابن مجاهد فى تحول نظرة المتقدمين، وإلى معقولية موقف ابن الجزرى... وإلى آثار المتكلمين والأصوليين.

(١١)

وأنت أيها الزميل الكريم فى بحث آخر من بحوثك القيمة تنتصر لقدامى النحويين العرب حين تقارن بين النحو العربى والبنيوية فتنبهنا إلى أن التحليل البنيوى هو من قبيل القسمة

الأفلاطونية وأهم صفة تتصف بها هذه القسمة أنها اندراج شيء فى شيء، بينما التحليل العربى هو من قبيل القسمة التركيبية وهى إجراء شيء على شيء طردًا وعكسًا.

وأنت تبشرنا بأن جوهر القياس النحوى العربى هو هذا الإجراء بينما تفتقد القسمة الأفلاطونية إلى الطرد والانعكاس.

وأنت تؤسس على هذا دعواك التى من حقك أن تفخر بها من أن القياس العربى أرقى كثيرا لأنه يُكوِّن دائما ما يسمى فى علوم الرياضيات الحديثة بالمجموعة (فى لغتنا نحن القاهريين) وبالزمرة فى لغتك ولغة بعض أشقائنا العرب.

(١٢)

وأنت تنتصر للنحو العربى فى جانب آخر حين تثبت له أنه عرف مفهوم التحويل الذى وفق تشومسكى فى إحيائه وإدخاله فى النظرية اللغوية الحديثة، وإن لم يجعله الأساس فى كل شيء كما هو عند النحاة العرب الأولين.

وأنت الذى سبقت إلى القول بأن إجراء الشيء على الشيء هو عين التحويل بما أن المحول والمحول إليه متكافئان فالتحويل مع عكسه من وجهة نظر المنطق الرياضى الحديث تكافؤ غير اندراجى يُحصَل عليه بالقياس.

وأنت من أجل تأسيس المنهجية العلمية العربية فى علم اللغة تغوص فى أدبيات النحاة حتى تجد أصل النظرية النحوية. وذلك فيما يقول به العرب من أصل وفرع، أصل يبنى عليه ولا يبنى هو على غيره، أو ما يفرع عليه الفروع، وبناء على هذا تقول بأن البناء أو التفريع هو العملية التحويلية.

وأنت تمضى فى طريقك هذا حتى تقول إن الأصل هو الشيء الثابت المستمر لأنه يوجد فى جميع فروعه مع زيادة ولذلك لا علامة له بالنسبة لفروعه.

(١٣)

وخلاصة قولى فيك أنك فيلسوف لغوى مؤمن مستنير قادر على استخدام كل أدوات

فلسفة العلوم لكنك تعرف حدودها.

ويكفينى دليلا على هذا قولك فى هامش أحد بحوثك إن التحليل التصنيفى شىء معمول به فى كل علم وبخاصة فى علمى الحيوان والنبات، إلا أن العلماء لا يكتفون به فى اكتشاف أسرار الكائنات.

ويكفينى أيضا استنكارك أن تحصر اللغة فى وظيفتها البيانية، وانتباهك إلى اعتباطية اللغة، وأنه لولاها ما استطاعت أى لغة أن تعبر عن المسميات والمعانى الطارئة، أو عن التصورات التى لم تحدث بعد فى أذهان الناس.

لهذا كله، ولغيره مما يقعدنى المرض عن الوفاء بحقك فيه، ترى نفسك ونراك معك حقيقًا بأن تكون بين الخالدين.

■ ■ ■

الفصل الثانى

د. على فهمى خشيم

(ليبيا)

(١)

أيها الزميل الكريم

يستقبلك مجمع الخالدين اليوم وقد جئته بخطوات واثقة تكاد تعبر عن نفسها فتقول إن صاحبها أولى الناس بموقع بين الخالدين وقد جاءت خطواتك فى حياتك المباركة مواكبة لتطورك العقلى المتفوق فى طلعته وتطلعه واستطلاعه، وفى توافقه مع حدود الطبيعة البشرية والقيم الإنسانية.

ففى العقد الرابع من عمرك حيث تتنامى ملكات العقل إلى أقصى حدودها نراك معنيا بدراسة النزعة العقلية فى تفكير المعتزلة، ولا تزال تتعمق دراسة أثر العقل فى هذا الفكر الإسلامى، وكأنك كنت تريد له أن يسود وأن يقود، ولاتفتأ تتتبع تفكير طائفة المعتزلة حتى تصل معهم إلى نقطة القمة فى منحناهم التاريخى حين وصلت قوة تفكيرهم إلى منتهاها وبدأ الانحدار الذى لابد منه فى كل قدرة عقلية، وأنت تضع يدك فى ذكاء شديد على ما يجسد هذه النقطة فى تفكير أبى على الجبّائى وابنه أبى هاشم وكأنك تريد أن تنتصر لما انتصر له تيار الوعى فى الفكر الإسلامى نفسه على يد ابن الزوجة الذى هو الأشعرى، وأنت لا تخصص له من دراساتك ما خصصته لسابقيه لا لشىء إلا لأنك كنت فى فتوتك العقلية معنيا قبل كل شىء بالبحث فى الحرية ومداها فى التفكير فى الدين، ومازلت على عنايتك حتى أدركت غايتك، وصورت حدود ما يمكن لهذه الحرية العقلية أن تدركه.. وما يمكن للزمن أن يدركه منها.

(٢)

وإذا أنت بعد هذا التبصر الدارس تدعو نفسك فى مرحلة تالية من حياتك العقلية إلى دراسة التصوف، فإذا أنت لا تشغل قلمك بفكرة التصوف ولا بآثارها ولا بالطريق إليها ولكنك شأنك شأن الرائد تؤثر أن تُعنى بالمذهب والطريقة، وأنت تتأمل فى مذهب علم من شيوخ التصوف فى المنطقة التى شهدت مولدك ونشأتك، وأنت حين تشرع فى هذا التأمل تجد أنه لم يسبقك إلى دراسته كثيرون، وإذا أنت تعكف على أحمد زروق تستجلى نزعته وتدرس طريقته، وتبين عن مذهبه، وتقدمه لقومك فى الصورة التى تراها أقربَ ما تكون إلى ما كان، وإلى ما كان عليه، وإلى ما كان منه، وإلى ما كان به، وإلى ما كان من بعده.

(٣)

ثم تمضى بك السنوات وتخرج من نطاق عملك فى وطنك إلى نطاق عملك لوطنك، حيث تعمل فى اليونسكو وتنال فيها أرفع ما يناله ممثلٌ لبلاده حين يصبح نائبا لرئيس مجلسها التنفيذى وأنت تصل إلى هذا مع بداية عقدك الخامس حين تبلغ الأربعين من عمرك المبارك وحين تدرك نعمة الله عليك وتدعوه أن يوزعك أن تشكر نعمته، وهناك فى باريس تتفتح مداركك وأنت الوزير السابق على عالم غربى ثالث غير العالم الذى أقحم ثقافته على وطنك وغير العالم الذى أتممت فيه دراساتك العليا..

وهكذا تجتمع لك معرفة واسعة بثلاث نهضات أوروبية متباينة الفكر والطباع، فقد نشأت فى بلاد عانت من الاستعمار الإيطالى كثيرًا وأفادت منه قليلًا، وأفدت أنت من أكثر هذا القليل... ثم درست فى بلاد البريطانيين فأفدت بأقصى ما يمكن للذكى من ارتشاف للرحيق من قوم يعلمون النجباء من غيرهم كيف يحللون، ويضمنون للأسوياء من غيرهم أن يتفوقوا بدم بارد وعقل هادئ فكيف بتفوقك وأنت تشع حرارة العقل وحماسة الوجدان.

(٤)

وها أنت فى التَجْربة الثالثة تتعرض لمدينة النور وبحور الحور، وإذا حظك وقدرُك ألا تستنير

بباريس وحدها وإنما يقتضيك شبابك الثانى وموقعك السامى أن تستنير بالعالم كله، وقد جاء أقطاب منه إلى باريس ينيرون ويستنيرون .

وهكذا كان قدرك أن تبدأ حياتك بعد الأربعين بسنوات أربع تطل فيها من شرفة غير عالية ولكنها جد فارهة على ميدان واسع من الفكر الإنسانى الطارف والتالد على حد سواء، ومن حسن حظك أن هذا الميدان لم يقف فى اتساعه عند حدود أن يكون مترامى الأطراف كما تعود الواصفون أن يصفوا، ولكنه كان عديم النهايات.. وقليل ما هم مَنْ نالوا حظوتك فى اكتمال مثل هذا التكوين العقلى المتميز.

(٥)

وإذا أنت بعد أن اكتملت لك مفاتيح الفلسفة العقلية والروحية تعود واثقًا إلى ذاتك وذات قومك تستكشف لها آفاقها بين آفاق الآخرين.

وإذا أنت لا تخطئ السبيل.. فنراك تُعنى بكتابات المؤرخين والجغرافيين الأغريق وغير الأغريق عن بلادك.

وإذا أنت تنفض عنها غبارًا بعد غبار.

وإذا أنت توثقها وتوثقها وتحقها وتحققها وتدققها وتشرحها وتشرحها، وتعلق عليها وتعلقها بعد ذلك كله فى أعناق قومك قلائد..

وما كان أحوج أعناق قومك إلى مثل هذه القلائد القديمة يعيد نحتها فنان فى مثل قدرك وقدرتك واقتدارك!

(٦)

أيها الزميل الكريم

هكذا دلفت من الفلسفة إلى التاريخ ثم ها هو التاريخ يقودك إلى قلب التاريخ فإذا أنت تبحث فى التاريخ عن الحضارة.

وإذا أنت تخرج علينا ذات ربيع بفكرتك أو بنظريتك عن فرعون العربى ثم باكتشافك لعروبة

أسماء الأباطرة الرومانيين، ثم باكتشافك للصلات بين العربية وبين اللغات الأخرى واحدة بعد الأخرى:لاتينية وغير لاتينية.

وإذا أنت من هذا وبهذا وبعد هذا تؤصل لدراسات قيمة وغير مسبوقة تتناول علاقة لغة قومك وتراثها الحضارى بحضارات سابقة عليها .

وإذا أنت تكلف نفسك كل ما تطيق وبعض ما لا تطيق من أجل الانتصار لنظرياتك الرائدة.

ثم إذا أنت تخطو خطوة ثالثة فى هذا الطابق الفاره من طوابق إنجازاتك..

فإذا أنت بعد أن وصلت إلى جوهر الحضارة من قلب التاريخ ترى عمقا لا يدركه إلا مَنْ وصل إلى القمة التى وصلت إليها ويبدأ ينظر من حالق إلى أرض المعرفة وقد انداحت أمامه مبسوطة الحقائق..

(٧)

وفى هذه المرحلة من حياتك بدأت تعطى للغة العربية بعض ما أفاض الله عليك به وإذا أنت رائد فى بث الثقة فى نفوسنا حين أتممت دراستك الرائدة عن تفصح الدارجة الليبية المعاصرة بعدما درست الأمر دراسة متعمقة وانتهيت إلى ما بشرتنا به فى مجلة هذا المجمع من هذا التفصح.

وقد قادتك ريادتك إلى إدراك عوامل التطور الإيجابى التى ساعدت على هذا التفصح، وبلغ بك الإنصاف أن تذكر ما لم يذكره غيرك وما لا يمكن لغيرك أن يذكره من أن لغة أولادك أفصح من لغة مَنْ كانوا فى مثل سنهم فى جيلك.

(٨)

أيها الزميل الكريم

لقد كنت مع هذا رائدًا ماهرًا فى دراستك للدخيل فى الدارجة الليبية، كما كنت بارعًا فى تقسيمه إلى قديم وحديث، كما كنت للمرة الثالثة بارعًا فى استقصاء أمثلة الدخيل القديم من اليونانية ومن اللاتينية ومن العبرية والبربرية والسريانية وأمثلة دخيل الحديث من التركية والإسبانية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية.

كنت رائدًا فى التفاتك إلى تفاوت نسب نجاح سياسات التعريب تبعا للمجال المهنى، فأنت الذى اكتشفت بعد دراسة ومسح أن المصطلحات الرياضية فى بلادك قد تعربت تماما وانتفى منها الدخيل على حين أخفق التعريب إخفاقًا تاما فيما يتعلق بالسيارات وتسميات أجزائها المختلفة.

(٩)

.. وإذا أنت فى خطوة تالية تدرك أن للغات شمال إفريقيا حقوقا عليك، وإذا أنت تنتهى بعد دراسات وبحوث إلى قول لم يسبقك إليه كثير ولا قليل ممن هم فى مكانتك وعلمك.

وإذا أنت تعلن أن البربرية الأمازيغية ليست إلا صورة متحورة من لغة القرآن الخالدة، وأنت فى سبيل إثباتك لنظريتك لا تقف عند حدود الشواهد أو الدلائل أو القرائن أو الاستنتاجات وإنما تخطو خطوة أوسع وأوثق بكثير من هذا كله فتضع معجمًا عربيا بربريًّا مقارنًا ينتصر لفكرتك، وينتصر لعبقريتك، ويخلد فى عالم اللغة ذكرك.

(١٠)

وإذا أنت تفعل هذا أيضًا مع قبطيتنا المصرية باقتدار لم يعد غريبًا عليك ولا غريبا عنك، وبتوفيق أصبحت تعرف طريقك إليه، ويعرف طريقه إليك.

وإذا أنت تمتد بهذا إلى مصريتنا القديمة بجسارة، وإذا بك، ولك السبق، تجعل من علم اللغة التاريخى ميدان توحيد، وتطور من آليات هذا العلم فى سبيلٍ طويل بدأ به مَنْ هم قبلك ولم ينتهوا إلى ما تريد أن تنتهى به إليه، وكأنك تسير مع اللغة فى طريق كالذى سار فيه من قبلك صمويل ألكسندر مع الفلسفة، وكأنك تريد أن تنتهى إلى نظرية لوحدة اللغة كما انتهى سلفك إلى نظريته فى وحدة المعرفة.

وقد وصلت إلى منتهى الحكمة حين أدركت أن العامل الأهم فى توثيق عرى الوحدة الوطنية والقومية هو اللسان، وقد جاهرت بهذا فى ظل صراع فكرى بين دعويين كلاهما تفتقر إلى الصواب الذى لا تفتقر إليه دعواك، ومع هذا فقد كان لكل منهما بريق يفوق رؤاك، الأولى دعوى الأيديولوجية والثانية دعوى البراجماتية، وغفل هؤلاء وأولئك عما وصلت إليه وعما وهبت نفسك له منذ أدركت حقيقته.

(١١)

وخلاصة قولى فيك يا سيدى أنك رائد فى قومك، والرائد لا يكذب أهله، إنما هو يلتمس لهم الطريق ويضيئه، أنت رائد مستكشف، وأنت رائد مكتشف على حد سواء، أنت رائد مستكشف جاد يُجد فى بحثه، وأنت أيضًا رائد مكتشف موفق من الطراز الذى يبحث فى تراث قومه وآفاق زمنه على حد سواء عما يراه كفيلا بهداية قومه ورفع شأنهم، وفيك وفى خصالك وفى نشاطك الممتد مثل حى لتفوق الرائد وتواضعه وفضله .. فأنت ترسم لقومك طرقًا شتى لا طريقًا واحدًا وتأخذ بأيديهم إلى مناحٍ متعددة، وتترك لهم حرية الاختيار.

وأنت كثيرًا ما تدرك الحق بعد تمحيص، والصواب بعد فحص، والخير بعد تأمل، والجمال بعد دراسة فإذا ما أدركت هذا وذاك فإنك تهدى ما تراه وما تجده إلى قومك سهلا نهلا سخاء رخاء وكأنك اكتشفته لتوك وكأنك لم تبذل فيه فؤادك وعقلك، وأنت تفعل هذا على مدى عمرك المبارك كله.

(١٢)

أيها الزميل الكريم

تريد منى أدلة على ريادتك: دعنى أقتبس من العالم البريطانى المسلم مارتن لنجز «عبدالكريم نور الدين» صاحب كتاب (ما هو التصوف) قوله لك إنه كان يحس أن أعلام التصوف الإسلامى ينتهون عند عبد الكريم الجيلى حتى جئت أنت فكشفت عن شخصية صوفية تضارع أبا حامد الغزالى.

وأنت فى ريادتك تبذل من أجل فكرتك كل جهدك العقلى والوجدانى على حد سواء، ولا تزال حتى يومنا هذا تثابر من أجل هذه الفكرات التى يكفى بعضها لتحويل النكرات إلى شيوخ ذوى مريدين لكنك لاتتعجل المشيخة ولا الرياسة ولا تستيئس من أن يُضفى عليك المجد اللائق بدورك، ولا تنعى على الناس تأخر إيمانهم بك، أو نفاحهم عن فكرك، وكأنك فى كل هذا تستحضر حال شيخك زروق الذى قُدر لك أن تبدأ تصنيفك وتأليفك وترفعك ببحثه ودراسته وكتابة سيرته.. كأنك تتمثله وهو يقول لأحد تلاميذه: نحن لاتفوح رائحة مسكنا حتى نتسوس تحت التراب.

(١٣)

أنت الذى رددت قومك إلى القول ببطلان خرافة المجموعات اللغوية المنفصلة أو المفصولة، وإلى التنبيه إلى أن هذا التقسيم لايخرج عن كونه وهما توارتيا محضا لا أساس له من العلم وأنه إذا كان ولابد من أساس للتقسيم فليكن الأساس جغرافيا تاريخيا لا عرقيا سلاليا.

وأنت فى ريادتك لاتقف عند حدود الأرض تذرعها ذهابًا وإيابًا، ولا عند حدود السماء تذلل بالطيران فيها عقبة المكان والزمان، ولا عند حدود البحار تحاول كما ذكرت فى كتابك «رحلة الكلمات الثانية» أن تنافس بها رحلات السندبات البحرى... لكنك فى ريادتك غواص متمرن متمرس يجيد البحث عن اللؤلؤ فى أعماق الكتابات العربية وغير العربية، المشهورة وغير المشهورة، ولاتكتفى بأن تخرج لنا اللالئ ولكنك ترفق كل لؤلؤة بما تستحقه من تأصيل وتأثيل.

وأنت لا تتوقف عن الريادة، بل إنك بارع أشد ما تكون البراعة فى تحويل التكرار إلى ترديد، والتداخل إلى تشابك، والتغيير إلى تجدد، والمقولات إلى مقالات، والمقالات إلى مقولات، والآراء إلى رؤى، والرؤى إلى آراء، والنظرات إلى نظريات، والنظريات إلى نظرات.

(١٤)

وأنت بعد هذا تتصور سلوكك فى مجال الفكر شبيهًا بحركة القطارات بإطارها وقضبانها ومحطاتها وما كان أحراك أن تشبه سلوكك بسلوك الساتل الذى يجوب آفاقًا أوسع، ويكشف عن أسرار أدق، ولا يعود من حيث أتى، وإنما يعود إلى حيث بدأ.

ها أنت وقد اكتملت لك مواردك ومشاربك وملكاتك ومهاراتك ومعارفك ومصارفك، وها أنت وقد توحدت النظريات والحقائق فى كتاباتك وآثارك الفكرية، وها أنت وإذا غاية بحوثك تنتهى إلى فهم جديد لعلم اللغة التاريخى تجعله أقرب ما يكون إلى علم الدلالة، وكأن الدلالة عندك تاريخ وكأنك التاريخ عندك دالة ودلالة.

(١٥)

أيها الزميل الكريم

ها أنت اليوم تخطو أروع خطواتك وأبدعها من قلب الحضارة إلى صدر اللغة بعد أن خطوت

من باطن الفلسفة إلى عقل التاريخ وبعد أن خطوت من ذاكرة التاريخ إلى فؤاد الحضارة، وإذا أنت اليوم وبعد اليوم علمٌ خفاق فى أرض اللغة وفى سمائها وفى سماكها كما كنت من قبل علمًا فى كل ما مارست.

وإذا بمجمعنا هذا بعدما بلغ السبعين من عمره يضمك إليه عضوًا عاملًا، وهو يحرص على أن يضمك إليه قبيل أن تبلغ السبعين من عمرك، ويدعو لك الله أعضاؤه أن تبلغ فيه السبعين والثمانين وما بعد المائة أيضًا.

وإذا بمجمعنا ينتدبنى اليوم لاستقبالك، ولم ألقك من قبل وجها لوجه، لكنى كنت على الدوام أجد فى سطورك عبارات كأنى أنا الذى كتبتها مع بعد الشقة بين ما عالج كلانا.. وإذا كان الأمر كذلك فلتسمح لى أن أستعير فى ختام تقديمى لك بعضًا من كلمى وبعضا من أسلوبك فى التأثيل والتأصيل.

(١٦)

إذا كان لى أن أستعير من كلامى فى تقديمك عبارة واحدة فإنى أفضل أن أستعير من وصفى لك بالساتل قولى لك: إنك تعود لا من حيث أتيت ولكن إلى حيث بدأت، وقد بدأت فى مصراتة مسقط رأسك، ومثوى شيخك، ولها بذلت نشاطك، وأعدت بناء ضريح شيخك زروق.. فأنت إذًا مصراتىّ المولد والهوى..

دعنى أنطق نسبك على نحو ما ننطقه فى مصر بنوع من التسامح المقلد للتسهيل المباح فى الشعر لأقول لك إنك مصراتى ..

ودعنى أكمل لك الجملة على عادة المناطقة لأقول لك:

. وكل مصراتى من مصر آتى...

وكل مصراتى إلى مصر آتى...

وها أنت قد أتيت.

■ ■ ■

الفصل الثالث

د. على أحمد بابكر

(السودان)

(١)

أساتذتى الأجلاء

نستقبل اليوم علمًا من أعلام الفقه الإسلامى الذين أتيح لهم فى سن التكوين أن يدرسوه ويتشبعوا به، وأن يحيطوا بالعلوم المتصلة به، وعلى رأسها علوم اللغة العربية جميعًا، ثم قدر لهم وهم فى سن النضج أن يعيدوا درس ما درسوه فى ضوء مناهج البحث العلمى فى معاهدها الكبرى فى الغرب، حيث قد يتوقع أن تتجرد النظرة من آثار الحب لكنها لا تتجرد من آثار التقدير، وقد تتجرد من آثار الإيمان لكنها لا تتجرد من آثار اليقين، وقد تتجرد من آثار الانتماء لكنها لا تتجرد من آثار الولاء.

وإذا هو باكتمال نضجه يضيف بدراسته هناك إلى دراسته هنا آفاقًا من علم وفهم، وتأمل وتأويل، وتقدير وتقرير، وتأصيل وتحرير، وإذا هو يعود إلى قومه ليقدم لهم رؤيته الذاتية إلى تراثه بعدما تشبع بقدرات إبصار جديدة، فى الوقت الذى يقدم فيه نظرة متأنية إلى تراثه بعدسات غربية، ونظرة ثالثة للحقيقة فى مرآة الفكر الغربى...

(٢)

أصبح الأستاذ بابكر قادرًا على أن يمهد بكتاباته عن فقه قومه قدرًا أكبر من تقدير قومه

وغير قومه لهذا الفقه، ومن تقييم أهله وغير أهله لتراث هذا الفقه، ومن أمل المنصفين فى عشيرته وفى غير عشيرته فى العمل على التمكين لهذا الفقه فى حاضر العقل الإنسانى الحديث، كما تمكن من قبل من تاريخ هذا العقل وساعده على بدء عصر النهضة.

وقد تخطى زميلنا الكريم بدراساته وبحوثه وكتاباته حدود المذاهب والمدارس الفقهية ليصل إلى جوهر الفكر الفقهى وأصوله فى الإسلام، ولم يقف بجهده عند حدود البحث والعلم، لكنه شارك على أوسع نطاق بالتدريس والبحوث والمحاضرات فى جامعات أم درمان، والقرآن الكريم، والخرطوم، والملك سعود، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكلية الدراسات الإسلامية فى الإمارات العربية.

وفى كل هذه المعاهد المتخصصة أجاد الأستاذ بابكر تدريس أصول الفقه والفقه المقارن، وآيات الأحكام، ومقاصد الشريعة. كما درّس علوم التفسير، ومناهج البحث، والقضايا الفقهية المعاصرة.

(٣)

أما بحوث الأستاذ بابكر فقد امتدت لتشمل نظام الأسرة فى الإسلام، والعلاقات الدولية فى الإسلام، وهيأت له عقليته الفقهية أن ينشر كتابًا عن الصلاة غير المفروضة، وأن يعد كتابًا آخر عن الاتباع والتقليد. كما هيأت له دراساته الفقهية الممتدة قدرة متميزة على شرح الحديث النبوى فتولى تقديم شروح مفصلة لأكثر أحاديث صحيح البخارى فى إذاعة القرآن الكريم فى أم درمان، كما عبر باقتدار وبراعة عن رؤية الفقيه لقضايا عصره ومشكلات وطنه من خلال منابر الرأى فى أجهزة الاتصال المختلفة، كما أسهم بجهد وافر فى المؤتمرات العلمية التى عقدت فى مجالات تخصصه وكان فيها جميعًا صوتًا للحق الصادر عن إيمان، وللعلم الصادر عن دراسة، وللفكر الصادر عن عقيدة.

وفى كل هذه المناشط العلمية استعان زميلنا الفاضل بشاعرية مفطورة مكنته من أن يفيد من الموهبة ومن القريحة، ومن الذخيرة الشعرية كذلك، وساعدته على أن يضفى الروح الشاعرة على كل ما كتب وألف فجاءت كتاباته الفقهية أقرب إلى النفوس المهتدية، وأيسر على النفوس الباحثة عن الهدى.

(٤)

ولأن الأستاذ بابكر، شأنه شأنُ كل عالم أصيل، شاهد على عصره، فقد تصدى بالرأى لكثير من قضايا عصره مستلهمًا ذخيرة الفقه والعلوم الإسلامية التى درسها، ومستهديًا بفطرة صقلها العلم وهذبها الشعر، وإذا هو يلتفت إلى كل ما فى إمكانه أن يقدمه لدينه وبنى دينه، ولقومه وبنى قومه، ويكفى فى هذا الإطار أن أشير إلى جهده الرائد فى دراسة الإعجاز التشريعى فى القرآن الكريم دراسة تنبئ عن فهم مستفيض لأصول الشرائع وفلسفة القوانين، فضلًا على إحساسه بما قيضه الله -سبحانه وتعالى- لكتابه الكريم من إعجاز تشريعى لم يختص به كتابًا غيره.

وفى هذا الإطار أيضًا من شهود العصر - والشهادة عليه - قدم أستاذنا دراسته الرائدة عن حدود الحريات فى شريعة الإسلام.

(٥)

وقد عنى زميلنا الكريم بدراسة أحوال المسلمين خارج بلاد المسلمين، فكتب وحاضر عن المسلمين فى أوروبا، كما حاضر وكتب عن الإسلام فى إفريقيا، ولعله وجد من صدى دراساته ما دفعه إلى استقراء أثر المسلمين فى أوروبا فى كتاب مستقل أنبأنا أنه بسبيله إلى الانتهاء منه ونشره عن قريب.

وعلى صعيد آخر فقد كان من الطبيعى أن يتوج عالمنا قراءاتِه ودراساتِه على حد سواء، بدراسات عميقة وغير مسبوقة لأعلام الإسلام، وقد قدم بعض هذه الدراسات فى أحاديث إذاعية تحت عنوان «روائع السير»، وقدم بعضها الآخر فى كتاب بعنوان «أيام وأعلام».

(٦)

أيها الزميل الكريم ..

أنت شاعر من شعراء الحكمة، وقد انقضى عقدان من الزمن على نشرك لديوانك الوحيد الذى اخترت له عنوانًا مراوغًا: «سلسبيل اللهب»، وما كان أحراك أن تسميه «سلسبيل الذهب»، ذلك أن شعرك ينم عن عملك بأصول الفقه، وعن علمك بالفقه.

وأنت ترى المنطق أعجز من أن يفسر الحياة، وأضعف من أن تستقيم به الحياة، وترى الطبائع البشرية أبعد ما تكون عن تصورات الفلاسفة، وعلماء الأخلاق، ودعاة الدين، وأرباب الفضيلة، ولا يزال شعرك يعبر عما فى وجدانك من قلق يعتريك، وإيمان يفتديك، فإذا أنت على الدوام تشكو فى شعرك اضطراب أحوال الناس، وسوء أخلاقهم، وتدهور طباعهم، وانقلاب الموازين، لكنك مع هذا ترى النور فى نهاية السرداب.. ترى وميضه وتعبر عنه فى قصيدة من قصائدك نراك فيها وقد ارتاحت نفسك للسمو عن مباذل الحياة حتى لو رأت العيش صعبا، وأنت القائل:

فأين جمال العيش إن كان كله فتاتًا وتلويثًا وشربًا من المر؟

(٧)

أيها الزميل الكريم ..

رأيتك تدرك بشفافية روحك أن طريقك جد مختلف عن طريق العامة، وربما عن طريق الكافة، وأن علمك بالدين وفقهه يفرض عليك أن تنقى نفسك من كل زيف حتى تصبح أقرب إلى النور الذى يضىء لصاحبه حياته وطريقه، ويهبه وجدان الاطمئنان بعيدًا عن بركان القلق الناشئ عن مواجهة الحقيقة المرة التى هى سمة من سمات عصرنا، وأنت ترى القوة فى الصدق وتحرص على هذا الصدق حرصا يجعلك تجزع من التنبيه، وتشمئز من التسفيه، وتأنف من التمويه، وهكذا تنطلق خطواتك فى الحياة لا تبالى ولا توارى لأنها لا تؤمل ولا تجمل، وأنت تعبر عن هذا فى شعرك خير تعبير حين تقول:

وليس قويا من يعيش مموها   يعذبه كشف الحقيقة والخُبْرِ
شبيه ببيت العنكبوت مساره   وأوهن بيت للعناكب فى الدهْرِ

وأنت تدرك حقيقة السعادة، وحقيقة الشقاء، وترى فى بعض السعادة شقاء، وفى بعض الشقاء سعادة، وتميز هذا من ذاك. وتستشرف من دينك أنوار الهداية فيساعدك دينك وفقهك وعلمك على هذا الصفاء الذى يمهد لحواسك أن تتراسل حتى يستحيل النور ريحا تشمها فى كل حين، واسمح لى أن أبدل الضمير فى بيت من قصيدك بما لا يفسد الوزن، لأخاطبك بما تحدثت به عن نفسك فأقول لك إنك:

رأيتَ فى الكون أنوار السعادة   واستنشقتَ فيه عبيرًا غير مبتذل

(٨)

واسمح لى مرة أخرى أن أكرر هذا فى بيت من قصيد لك يلخص بعض تجاربك مع الحياة والأحياء:

شقيت من كُثر ما حاربت من زُمَرٍ   من الثعالب تلهو وهى فى جَذْل

(٩)

أيها الزميل الكريم ..

آن لك اليوم ياسيدى أن تستريح حين تنضم إلى زمرة الخالدين زميلًا عزيزًا عليهم وعلى وطنهم.

وإذا لم يخنى حدسى، ولا أظنه يخوننى، فإننى أستطيع أن أقول إنك شافعى فى مذهبك الشعرى، وإن كنت مالكيا فى مذهبك الفقهى، وأنت فرنسى الثقافة، وإن كنت بريطانى التعليم، كما أنك إنسانى المخبر، وإن كنت إقليمى المظهر.

وأنت قبل كل هذا مجمعى أصيل فُطر على المجمعية، وغذى من أجلها.. درى هذا أم لم يدر.

وقد سرت فى تكوينك على خطين متوازيين متآزرين لم يتقاطعا أبدا، إنما قوى كل منهما أخاه دون أن ينتصر عليه أو يتقدم حتى لو صورت المناصب والمناشط على غير هذا، فأنت لغوى بقدر ما أنت فقيه، وعلمك بأصول اللغة لا يقل عن علمك بأصول الفقه، وعلمك بالأحكام الأجرومية لا يقل عن علمك بالأحكام الشرعية، وقد كرمك ربك فتوج حياتك برئاسة الجامعة الإسلامية، ثم توجها برئاسة مجمع اللغة العربية فى الخرطوم، وهو ما لم يجتمع لمجمعى فى مجمعنا حتى يومنا هذا.

(١٠)

أيها الزميل الكريم ..

أنت اليوم ثانى سودانى فى هذا المجمع، كما كنت ثانى رئيس لمجمع الخرطوم، وكان جديرًا

بالمجمع أن يكون حظه من أبناء وطنك أكثر من هذا بكثير، لكنه ظنّ، وبعض الظن صواب، أن كل عضو مصرى فيه هو ممثل لوطنك الذى يعيش فيه شعبنا على الحب والإخاء منذ آلاف السنين، على أنك أول سودانى ينتخبه أعضاء هذا المجمع، وقد أعطوك أصواتهم عن غير سابق معرفة لكن عن حب وتقدير، وقد كان سلفك واحدًا من الأعضاء الأحد عشر المعينين غداة صدور قانون المجمع فى مطلع الستينيات.

ومن الطريف أنك اليوم أكثرُ الأعضاء العرب شبابا على نحو ما كان سلفك يوم عين أكثر الأعضاء العرب شبابًا، ولا أظن هذا من باب المصادفة إنما هو تعبير تلقائى وأمين عما يشعر به المصريون من أن السودان يمثل لهم وفيهم شبابَ النيل وفطرتَه وفورتَه وثورتَه، وهم لا يتصورون السودان ولا السودانى فى غير هذه الصورة المحببة إلى نفوسهم، الأثيرة إليهم، ومع أنهم قد يتمنونَها لأنفسهم فى بعض لحظات التأمل إلا أنهم يدركون أن هذه الأمانى ضرب من المحال، هكذا أرادت الطبيعة، وليس من حقهم أن يغيروا من إراداتها شيئًا مهما أقاموا من سدود، أو ارتضوا من حدود، أو قبلوا من قيود.

وها أنت اليوم تتبوأ مقعدك بين الخالدين ليكتمل بوجودك عِقدنا، وليكتمل بحضورك أنسنا، وليكتمل بعلمك عملنا، وليكتمل بشعرك أملنا.

(١١)

أساتذتى الأجلاء..

من حق زميلنا علىّ أن ألخص لكم مسار حياته العلمى فى مراحله المتوالية، وهو تاريخ علمى مشرف ووثاب.

تخرج أستاذنا فى كلية الشريعة والقانون من جامعة أم درمان الإسلامية عام ستة وستين، ثم نال الماجستير بعدها بأربع سنوات، فالدكتوراه بعدها بخمس سنوات، وقد نال الدرجتين فى أصول الفقه من جامعة أدنبرة، وعاد إلى وطنه الإسلامى متنقلًا فى العمل ما بين السعودية والسودان.

بدأ أستاذنا عمله الجامعى المرموق أستاذًا مساعدًا عام خمسة وسبعين، وسرعان ما تولى رئاسة قسم أصول الفقه فى الجامعة (١٩٧٧ ـ ١٩٧٩)، ورئاسة وحدة البحث والدراسات العليا (١٩٧٧ ـ ١٩٧٩)، ثم عمل بالتدريس فى الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة (١٩٨٠

ـ ١٩٨٥)، ثم عاد إلى رئاسة قسم أصول الفقه بالجامعة الإسلامية وقد أصبح أستاذًا مشاركًا (١٩٨٤ - ١٩٨٦).

(١٢)

وفى ١٩٨٥ تقلد عمادة كلية الشريعة والقانون والعلوم الاجتماعية وبقى حتى ١٩٨٦، ثم تقلدها مرة أخرى ما بين ١٩٨٧ و١٩٨٩، وانتدب بعدها للتدريس بجامعة الملك سعود (١٩٨٩ - ١٩٩٠)، وعين بعدها نائبا لمدير الجامعة الإسلامية (١٩٩٠) ونال فى أثناء توليه هذا المنصب درجة الأستاذية عام أربعة وتسعين، وتولى منصب مدير الجامعة الإسلامية طيلة العقد الأخير من القرن العشرين، واختير عام ٢٠٠٠ ليشغل منصب الأمين العام لوزارة التعليم والبحث العلمى السودانية، ثم اختير فى العام التالى ٢٠٠١ أمينا لمجمع الفقه الإسلامى، وفى العام التالى ٢٠٠٢ اختير رئيسا لمجمع اللغة العربية.

وفى أثناء هذا كله رأس تحرير مجلة «الشريعة والعلوم الاجتماعية» ما بين ١٩٧٧ و١٩٧٩، وما بين١٩٨٤ و١٩٨٦.

(١٣)

وقد كان زميلنا الكريم نموذجًا لانطلاق قيادات الجامعة الوطنية فى الدوائر الثلاث العربية والإفريقية والإسلامية. فقد اختير عضوًا بالمجلس التنفيذى لرابطة الجامعات الإسلامية ما بين ١٩٩١ و٢٠٠٠، واختير نائبا لرئيس اتحاد الجامعات الإفريقية وعضوًا بالمجلس التنفيذى (١٩٩٧ - ٢٠٠٠)، واختير كذلك عضوًا فى اللجنة التنفيذية لاتحاد الجامعات العربية (١٩٩٧ - ١٩٩٩). وكان قبل هذا كله نائبًا لرئيس اتحاد الجامعات السودانية، وعضوًا فى اتحاد الجامعات العالمية.

(١٤)

أيها الزميل الكريم ..

لعلك اليوم تضيف إلى كل ما سبق مجدًا تتطاول إليه النفوس والأعناق والقامات، ولعلك

كنت تتمنى على الله أن يكون لك بين الخالدين هذا المقعد الذى نستقبلك اليوم له، وندعوك إليه، ونرجو أن نسعد بك فيه.

ولعلى أكرر لك ما قلت من قليل من أننا نرجو أن يكتمل بوجودك عِقدنا، وأن يكتمل بحضورك أنسنا، وأن يكتمل بعلمك علمنا، وأن يكتمل بشعرك أملنا.

■ ■ ■

الفصل الرابع

د. مروان المحاسنى

(سوريا)

(١)

أيها الزميل الكريم

يستقبلك مجمعك اليوم وهو يأمل أن يفىء على ظلك ظله.. وأن يفيد من علمك علمه..

يستقبلك وقد تراءيت فى ذاكرتنا رجل مصطلح تطوف الأعماق كيما يستخرج لؤلؤة متفردة، وتستلهم الآفاق كيما تصنع جوهرة منفردة..

يستقبلك مجمعك وقد ارتسمت شخصيتك فى حدقاتنا وديعا دؤوبا تحتسب الجهد والجهد، وتصون العهد والوعد، وتكتسب المجد تلو المجد..

يستقبلك مجمعك وقد أعلن عملك عن نفسه فيما نراه من مصطلحات ألهمتك بها ذائقة ذاكرة، ووهبتها لك ذاكرة ذائقة، فأصبحت وأنت صاحب الفرائد والقلائد ذا ذائقة ذائقة، وذاكرة ذاكرة..

يستقبلك مجمعك وقد أعلن عملك عن نفسه فيما نلجأ إليه من حلول صاغتها لك فطرة متفرسة، وخبرة متبصرة، ويعلى فكرك من شأن نفسه بما يتجدد اعتناقك له من مثليات القيم وفضليات الشيم.

لا تعجبن من أن تجدنا قبل أن نراك رأى العين وقد عرفنا لك توفيقك وتفوقك، وليس الأمر فى هذا بدعا فإن مجمعنا يعرف كذلك لمجمعك آثاره وإيثاره، كما يعرف شعبنا لشعبك جده ووجده.

زكاك إقـدام ورأى شـاهد   ونقـى إيـمان وحسـن بيـان

(٢)

أيها الزميل الكريم

كأنى بك اليوم، ياسيدى، تمد فى خطوك خطوة حول البحر المتوسط لتشرف عليه من جنوبه، كما أشرفت عليه من قبل من شرقه، ثم من شماله، ولسان حالك يقول إنك كنت فى شرقه للعلم طالبًا، وفى شماله للحضارة جالبًا، وإنك فى كل أحوالك مثل بديع للمتحضر الضليع.

لقد أدركت ياسيدى قيمة الهدف الذى تسعى إليه مبكرا، وأدركت أن الانهماك فى السير الحثيث قد يلهى عن رؤية معالم الطريق واتجاهاته، وقد يجعل جوانبه تغيب عن السائر فى المصائر، لذلك فقد آثرت لنفسك أن تحدد الهدف، وأيقنت أن هذا التحديد كفيل لك بتسارع الخطى إلى هدفك المنشود، وعلى هذا الدرب سرت حثيثا حتى حفرت لنفسك اسما فى كل ميدان بذلت فيه جهدك.

(٣)

أيها الزميل الكريم

نما شغفك بالمصطلحات حتى أصبحت المصطلحات لك نديما.

ونمت مقدرتك على صناعتها حتى أصبحت أنت للمعاجم نديدا.

وأدركت من جوهر الطب ما أعانك على أن تصنع لعلومه فى لغتك جواهر مكافئة تصدقنا التعبير عما تشعر به نفوسنا تجاه المعانى، وعما تدركه عقولنا من الأعراض والأغراض والأمراض.

ها أنت تمضى على الدرب الذى اختطه الجيل السابق لك من مؤسسى الحركة العلمية فى بلدك الحبيب إلينا جميعا، وها أنت تضيف إلى أمجاد أسعد الحكيم، و حسنى سبح، ومرشد خاطر، وحمدى الخياط، وشوكت الشطى، وجميل الخانى، و هيثم الخياط، وهم الذين أصلوا

للعلم الطبى الحديث فى بيئتنا التعليمية، وفى بيئتنا اللغوية على حد سواء، فاستحقوا تكريم ضمير أمتنا، وتبجيل تاريخها، وعرفان أبنائها، ولم لا وهم الذين أثبتوا بالعمل الجاد قدرة لغتهم الفتية على استيعاب التقدم العلمى استيعابا يضيف للغة، ويوطئ للفهم، ويوطن للعلم؟

قد شيدوا آية بالشام خالدة   شتى المناهل تروى كل ظمآن

(٤)

أيها الزميل الكريم

أشهد.. بل أقسم غير حانث أنى رأيت جهد هؤلاء الرواد بارزا فى كل رجا من أرجاء العالم قدر لى أن أزوره، وأن أختلط بأطبائه، فإذا تلاميذ معهدكم العلمى فى دمشق على اختلاف مستوياتهم يبزون غيرهم من أهل العربية، ومن غير أهل العربية بما أتيح لهم من الفهم المتأنى الصائب والدقيق لحقائق العلم بعيدا عما يصيب العلم من أذى التشوش الذهنى الذى يعانيه الذين درسوا العلم فى غير لغاتهم، وفهموا المعانى الكلية من دون أن يفهموا جزئياتها على النحو الكفيل بفك الطلاسم، وحل الشفرات، فإذا بعض العلم فى أذهان الآخرين كأنه هو، وإذا بعض الفهم فى عقولهم كأنه هو، بينما أندادهم الذين درسوا على أيديكم يفهمون الحقيقة على نحو ما هى، لا على نحو ما كأنها هى.

وإذا لسانهم فى العربية وفى غير العربية يرطن بما يعرف فإذا رطانته رصانة، بينما رصانة غيره رطانة، وإذا حديثهم منبئ، وإذا تشخيصهم مصيب، وإذا تدبيرهم حكيم، وإذا تعليقهم شارح، وإذا قرارهم كاشف، وإذا نصحهم مثمر.

وإذا هم يخرجون بمرضاهم وتلاميذهم على حد سواء إلى نور العلم الذى لا يتهيأ إلا لمن ذاقوا حلاوة الفهم.

وإذا إنسانيتهم ترتقى إلى المدارج التى وصفها الحق - سبحانه وتعالى - بأكثر الأوصاف إعجازا وتكريما للإنسان يوم طلب من ملائكته أن يسجدوا لآدم لأنه عُلِّم الأسماء كلها.

(٥)

أيها الزميل الكريم

لا يخالطنى مثقال ذرة من شك فى أنك وأسلافك الأقربين والأبعدين على حد سواء من أولئك الذين عهد الله إليهم بالارتقاء بخلقه إلى المرتبة التى تستحق سجود الملائكة لمن ترتقون بهم.

أنت إذًا ياسيدى صانع رقى، ولست صانع حضارة فحسب.

وأنت إذًا أستاذ رفيع القدر..

تجاوزت قدر الأساتذة الذين يفهمون العلم..

إلى قدر الأساتذة الذين يُفهمون العلم..

إلى قدر الأساتذة الذين يصنعون العلم..

إلى قدر الأساتذة الذين يطورون العلم..

إلى قدر الأساتذة الذين يصفون العلم..

إلى قدر الأساتذة الذين يسمون العلم حق اسمه..

فإذا ما وصلوا إلى ذلك فقد قدروا الله حق قدره..

وهو أقصى ما يطلب رب العزة من عباده المؤمنين.

(٦)

أيها الزميل الكريم

نتأمل الإنتاج الذى شاركت فى صنعه فى معجماتنا فإذا نحن أمام ذاتنا اللغوية وقد تجلت بيديك على حقيقتها، وعلى يديك فى حقيقتها، وقد رزقت التوفيق فى تجريد المعانى من مصاحباتها، فاخترت لمعنى الجوهر اللفظ الكفيل به، ثم إذا أنت تضيف إليه فضلا آخر حين تبحث بين ما يسمى «المترادفات» على أكثر «المتوافقات» مع المعنى.

وإذا المصطلح على يديك لفظ دقيق واضح بسيط معبر، لكنه مع هذا لفظ ذو ظلال، وإذا أنت فنان أدركت من كل ما أمامك ما هو كفيل بتجريده تجريدا فلسفيا، وتشكيليا، وتشريحيا، وتصويريا، ثم التعبير عنه بما يهيئ له الظل إذا تحرك، والإشعاع إذا تقلب.

بل إذا المصطلح على يديك يستبقى لنفسه طاقات من طاقات الوضع الكامنة لا تظهر إلا عندما يصبح المصطلح جزءا من عبارة مفهمة تستمد قدرتها على الإفهام والتعبير مما ترفده بها هذه الطاقة الخفية، وإذا هو قابل للنسب، والإعراب، والتصغير، والإضافة، والجمع، والاشتقاق.

(٧)

أيها الزميل الكريم

أنت إذًا فى معملك المجمعى فنان جميل يكسب لوحاته كثيرا من نفسه القادرة على التعبير والإظهار والإبانة، وتعينك على هذا قريحتك القادرة على الفهم والاستبطان، فإذا مصطلحاتك تحمل إلينا بعضا منك.

وإذا نحن نراك فيها متجليا لأنك أعطيتها بعض نفسك من دون أن يأخذ هذا منك إلا كما يأخذ الابن من أبيه من بضع ضئيل، لكن هذا البضع ينقل إليه كل الصفات وكأنما نقل إليه كل الذات.

(٨)

أيها الزميل الكريم

لقد أدركت قبل غيرك أن مشكلتنا الأساسية فى بلادنا هى أن ثقافتنا عربية، بينما حضارتنا غربية، وأننا لن نستطيع الدخول فى حوار مع الغرب ما لم نعد إلى استكمال ثقافتنا بإضافة بعض ما أنجز الغرب منذ تخلينا عن دورنا المميز فى نشر الحضارة فى العالم، وأدركت حقيقة حاجتنا إلى المصطلحات على أنها ألفاظ قابلة للحياة وللأمل لا مجرد ألفاظ مقابلة للوجود وللواقع.

وقد أدركت قبل غيرك أنه لا يكفى أن نضع المصطلح مقابل المصطلح لنستطيع المشاركة

فى الحوار، بل لابد أن يتكرس المصطلح بالاستعمال، وأن يدخل حيز المعقول فى أذهاننا، وفى مفاهيمنا كى يحق لنا مناقشة منطلقاته، والنظر فى صلاحه، أو ترجيح استبعاده.

(٩)

أيها الزميل الكريم

لقد عبرت أنت نفسك منذ عشرين عاما حين ألقيت كلمتك فى مجمع دمشق عن هذا المعنى حين قلت: إن المستشرقين لم ينقلوا من التراث العربى الإسلامى إلا ما يناسب الزاوية الضيقة التى كان يدرسها كل واحد منهم، ولأن حركة الاستشراق بمجموعها كانت تخدم غايات وأهدافًا لا تمت إلى العرفان، أو إلى المعرفة الصافية بصلة، فقد كان العائق الكبير الذى يصعب تخطيه هو مرور المفاهيم العربية من فكر غربى، يجد مشقة فى إدراك الروح الكامنة وراء ذلك الإنتاج العربى الممتد على عدة قرون، والمتشعب إلى مجالات عديدة من مجالات الفكر، والذى تربط ما بين أجزائه وفروعه نفحة من روحية شفافة لا تتلمسها إلا أنامل مرهفة، ولا ترى آثارها عيون لم تألف أجواءنا وقيمنا.

وقلت أنت يومئذ: إنه قد آن للعربى أن يقوم بنفسه بالتعريف بثقافته، وبإعادة النظر فيما كتب عنها فى العالم الغربى.

وها أنت ذا أنت وأقرانك قد خطوتم بنا خطوات واثقة فى هذا السبيل الجميل الذى تحوطه من جانبه الأيمن أشجار العزة شامخة ترنو ببصرها إلى المستقبل، وتحوطه من جانبه الأيسر أشجار الكرامة باسقة تحنو بظلها على الماضى فيه.. ونحن نرى الأمل مشعا طوال الطريق لا فى نهايته فحسب.

(١٠)

أيها الزميل الكريم

أنى لى أن أبلغ مبلغ مديحك وأنت حفيد تميم الذى غزا مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وروى عنه بضعة عشر حديثا كلها من الصحاح، ومن أشهرها قوله ﷺ: «إن الدين النصيحة»

(وكررها ثلاثا)، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله - عز وجل - ولكتابه ولنبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وهأنذا واحد من عامتهم يحيى واحدا من أئمتهم، لأن أئمته رأوا أن يطوقوا عنقه بفضل أن يكون مستقبلك اليوم فى معقل الأئمة الذى استقبل من قبلك من أعلام بلدك ومن أعلام مجمعك: محمد كرد على، وعبد القادر المغربى، ومصطفى الشهابى، وحسنى سبح، وعدنان الخطيب، وشاكر الفحام، وإحسان النص، ومحمد هيثم الخياط.

(١١)

أيها الزميل الكريم

لقد كان جدك تميم أول مَنْ أسرج السراج فى المسجد، كما كان أول مَنْ قص فى الإسلام بإذن من الخليفة عمر.. وها أنت لاتزال تضىء السراج الذى أضاءه جدك، وتقص الصحيح كما قصه جدك، وتستقصى النفيس كما استقصاه أسلافك.

ومهما بلغ قولى فيك فإنى لا أبلغ منزلة الشاعر الغزى مفتى الشافعية بدمشق حين وصف أجدادك فقال:

إذا افتخر الأنام بأرض شام	وعدوا دورها ثم المساكن
أقول مفاخرا قولا بديعا	محاسن شامنا (بيت المحاسن)

(١٢)

أيها الزميل الكريم

كيف لى إذا أردت وصفك أن أبلغ مبلغ أستاذى عدنان الخطيب حين وصفك فقال: إنك حاضر البديهة.. سريع الجواب.. دقيق فى نقدك. صارم إذا انتقدت.. تطرب للنكتة البارعة إذا سمعتها.. وتهوى اقتناصها إذا حانت لك.. هذا مع ميل شديد للدعابة البريئة.. إذا ما استأنست بالصداقة..

وكأن أستاذنا عدنان الخطيب كان يريد أن يقول إنه لم ينقصك من مقتضيات العظمة شىء، فها أنت تتمتع بالخلق الذى قال: الإمام الغزالى فيما نسب إليه: إن العظيم لا يكون عظيما إلا به.

(١٣)

أيها الزميل الكريم

هل تدهش إذا سمعت منى أنه كان من حسن حظى أنى سمعت اسمك أول ما سمعته من أستاذنا عدنان الخطيب عام ثمانية وسبعين، ولم أكن أدرى أنك ستفوز بعد ذلك الحديث بأقل من عام بعضوية مجمع دمشق العربى، ولا أن الأستاذ الخطيب نفسه سيكون مستقبلك فى المجمع الدمشقى بعدها بعقد من الزمان، ولا أنى سأكون مستقبلك فى المجمع القاهرى بعد عقدين آخرين من الزمان.

ولست أدرى بعد هذا إن كان الله سيرزقنى الحظ أن أجلس إليك مجلس الناهل من فيض علم الأستاذ، لكنى أدعو الله أن يكون هذا من حظى، وأن يمتع مجمعنا بك فى القاهرة، وهى الإفريقية القاسية، كما متع بك دمشق وجدة من قبل، وهما الآسيويتان الآسيتان.

(١٤)

أيها الزميل الكريم

لقد كان لسورية العزيزة كرسيان حين أنشئ هذا المجمع، أما الكرسى الأول فقد تعاقب عليه ثلاثة من أسلافك فى رياسة مجمع دمشق: الأستاذ محمد كرد على حتى عام ثلاثة وخمسين، ثم الأمير مصطفى الشهابى فى عام أربعة وخمسين، ثم شاء تعديل قانون المجمع فى عام ستين أن يبقى الشهابى على رأس مجمع دمشق فرعا، وأن يكون بكرسيه فى مجمع القاهرة عضوا مراسلا، وما أقساه من شعور علينا وعلى تاريخنا .

وبعد ربع قرن رأى المجمع أن يعود هذا الكرسى للأستاذ حسنى سبح عام ستة وثمانين، وقد خلفه فيه الأستاذ سعيد الأفغانى ما بين عامى واحد وتسعين، وسبعة وتسعين، ثم الأستاذ إحسان النص منذ عام ألفين.

أما الكرسى الثانى فقد شغله الأستاذ عبد القادر المغربى منذ عام ثلاثة وثلاثين حتى عام تسعة وخمسين، وظل الكرسى ينادى سورية طيلة سنوات الوحدة وما أعقبها حتى عام ستة

وثمانين حين أبى المجمعيون إلا أن يكون للأستاذ عدنان الخطيب مقعد من مقاعد العاملين، لا المراسلين.. ومن الصدف أنك تجلس اليوم فى هذا المقعد الذى استعاده عدنان الخطيب نفسه لسورية الحبيبة، وخلفه فيه بعد عقد من الزمان سلفك فى رئاسة مجمع سوريا الدكتور شاكر الفحام، الذى احتفل المجمع بتأبينه منذ أيام قلائل، وهكذا قدر لمقعدك ألا يخلو، فلا خلا ذلك المقعد، ولا غيب الله سوريا عن مقاعدها.

أما الدكتور هيثم الخياط فقد استحوذ له المجمع على كرسى من كراسى المستعربين. وهكذا أصبح لسورية ثلاثة مقاعد، والثلاثة قليل.

(١٥)

أيها الزميل الكريم

لا يستقيم أمر استقبالك من دون أن أعرض لك بعض ملامح تكوينك على نحو ما فهمناها، مع أننا سنسمع منك بعد قليل رؤية أخرى لهذا التكوين الذى بلغ بك ما بلغ من قبل، وهو تكوين جمع بين الهدوء والنضوج، كما جمع بين التمكن والنبوغ، وبين التأنى والتأتى، فقد تلقيت تعليمك فى سوريا فضفّرت فيه التعليم العربى بالتعليم الفرنسى، ونلت درجة البكالوريا فى فرع الفلسفة عام ثلاثة وأربعين (١٩٤٣)، والتحقت بكلية الطب فى جامعة دمشق فنلت شهادتها عام واحد وخمسين (١٩٥١)، وقد أتممت من عمر القرن ربعه، ثم تخصصت فى جراحة الصدر من جامعة باريس عام خمسة وخمسين (١٩٥٥)، وأبيت إلا أن تواصل دراستك للآداب حتى حصلت على شهادتها من جامعة دمشق عام ثمانية وخمسين (١٩٥٨) بعد سبع سنوات من حصولك على شهادة الطب، وهكذا أتيح لك أن تجعل التاج مزدوجا بعدما ضفرت الساق.

(١٦)

ثم إنك أنفقت عقدا من الزمان حتى أهلت نفسك لموقعك الرفيع فى الجامعة.

ثم عملت ربع قرن فى هيئة التدريس بجامعة دمشق، تدرجت فيها حتى أصبحت أستاذا للجراحة ورئيسا لقسمها، ثم خرجت من بلادك فى الشام لخدمة وطنك العربى

فى جزيرة العرب فقضيت فى هذه الخدمة عقدين من الزمان، حيث عملت عشر سنوات (هى عقد الثمانينيات) فى جامعة الملك عبد العزيز أستاذا ورئيسا لقسم الجراحة، وتوليت منصب مدير التعليم الطبى فى جامعة الملك عبد العزيز إحدى عشرة سنة، كان منها عقد التسعينيات كله.

(١٧)

وفى أثناء هذا كله نال المجتمع العلمى خارج وطنك حظه من إسهاماتك ومشاركاتك، ورحب بك أستاذا وباحثا ومنظرا، وعملت ممتحنا خارجيا للجراحة فى الكلية الملكية الأيرلندية ما بين العام الخامس والثمانين للقرن العشرين والعام المتمم للألف الثانية، كما ترأست تحرير مجلة كلية الطب فى جامعة الملك عبد العزيز عام ثمانية وثمانين (١٩٨٨).

(١٨)

أما فى ميدان عملنا فقد بدأت منذ خمسة وأربعين عاما عملك المنهجى فى المعجم الطبى الموحد، ولم تزل تبذل الجهد فى إعانة هيئته العظيمة حتى صدر عام ثمانين فى صورته التى تطورت إلى ما أصبح فى أيدينا الآن من سفر جميل نضعه على مكاتبنا وفى أعيننا.. به نحتفى، وفيه نحتمى.

وقد وضعت كتابا فى الألفاظ التى انتقلت إلى لغتنا من الإيطالية، وأظنك قادرا على فعل ذلك مع كل لغة من اللغات التى أجدتها إجادة أبنائها النوابغ، لا معرفة أبنائها العوام، وأنت من القلائل الذين جمعوا العلم بفصيلتى اللغات اللاتينية والسكسونية، وها أنت اليوم تجمع عضويتى القاهرة ودمشق، كما أنك رئيس المجمع الأعرق، وكما أنك كنت من قبل نائبا لرئيسه.

(١٩)

أيها الزميل الكريم

إذا كانت فرنسا قد كرمتك فمنحتك لغتها، ونفحتك مهارتها، ثم قلدتك وسام الشرف

برتبة فارس عام تسعة وسبعين (١٩٧٩)، وبرتبة ضابط (١٩٩٩)، فها هى مصر تهديك بعد عقد من الزمان أعلى أوسمتها بلا جدال وهو عضوية هذا المجمع، وإذا حظى يواتينى بأن أحمل إليك الوسام فأظهر فى الصورة إلى جوارك، وما أنا إلا حامل المسك، فتقبل من مجمعنا ما أمسكه عن غيرك، وما توج بك أمسك، وما هو محتاج فيه منك لغدك وأمسك.

■ ■ ■

الباب الثانى

فصول متفرقة عن رؤساء مجمع اللغة العربية بالقاهرة

الفصل الخامس

د. محمد توفيق رفعت

(١)

ولد محمد توفيق رفعت باشا بالقاهرة، ودرس فى مدرسة الألسن فى عهدها الأول، وعمل بعد تخرجه فيها مترجما بوزارة المعارف، وانتدب للتدريس بمدرسة المعلمين، ثم سافر إلى فرنسا لدراسة القانون بكلية إكس، وبعد تخرجه عاد إلى مصر فعين مساعدا للنيابة، ثم رقى قاضيا وبقى كذلك حتى سنة ١٩٠٢، حين انتدب مفتشا بلجنة المراقبة القضائية بوزارة الحقانية (العدل)، ثم عين مديرا للإدارة القضائية بها (١٩٠٧)، ثم اختير مستشارا بمحكمة الاستئناف الأهلية، واختير ليتولى منصب النائب العمومى (١٩١٩).

تولى محمد توفيق رفعت باشا خمس وزارات هى: المعارف، والمواصلات، والخارجية، والأوقاف، والحربية والبحرية، واشترك فى سبع وزارات، وعمل مع أربعة رؤساء وزارات هم: توفيق نسيم (مرتين)، ويحيى إبراهيم (مرتين)، وزيور (مرتين)، وإسماعيل صدقى (مرة)، لتبلغ المسافة الزمنية بين أول منصب وزارى وآخر منصب تولاه أحد عشر عامًا وشهرًا واحدا بالتمام والكمال.

بدأ محمد توفيق رفعت باشا مناصبه الوزارية فى وزارة من الوزارات الإدارية التى حكمت فى أثناء ثورة ١٩١٩، وهى وزارة (سميه) محمد توفيق نسيم الأولى، وزيرًا للمعارف طيلة عشرة شهور هى عمر الوزارة.

وعاد للوزارة مع نسيم أيضًا فى وزارته الثانية (٢٠ نوفمبر ١٩٢٢ ـ ٩ فبراير ١٩٢٣)، لكنه فى هذه المرة تولى وزارة المواصلات.

وتغير رئيس الوزراء لكنه بقى فى الوزارة التالية وهى وزارة يحيى إبراهيم وفيها تولى وزارة المعارف (١٥ مارس ـ ٦ أغسطس ١٩٢٣) ثم الخارجية من ٦ أغسطس حتى نهاية عهد الوزارة فى ١٩٢٤، كما تولى المعارف مؤقتًا لمدة أربعة أيام ما بين ٨ أغسطس و١٢ أغسطس ١٩٢٣.

(٢)

لم يشترك بالطبع فى وزارة سعد زغلول، لكنه اشترك فى الوزارة التالية وهى وزارة زيور الأولى بعد أسبوع من تشكيلها، حيث عمل وزيرًا للمعارف العمومية لرابع مرة من ١ ديسمبر ١٩٢٤ وحتى نهاية عهد هذه الوزارة فى ١٣ مارس ١٩٢٥.

ثم لم يشترك فى وزارة زيور الثانية عند تشكيلها، لكنه دخلها بعد ٦ شهور من تشكيلها وزيرًا للمواصلات فى ١٢ سبتمبر ١٩٢٥ و بقى حتى نهاية عهد الوزارة فى ٧ يونيو ١٩٢٦، كما تولى وزارة الأوقاف طيلة هذه الفترة أيضًا، لكنه تولاها (مؤقتًا) حتى ٣٠ نوفمبر ١٩٢٥، ثم بالأصالة فى الفترة الباقية.

وبقى بعيدًا عن الوزارة طيلة وزارات: عدلى باشا، وثروت، والنحاس، ومحمد محمود، وعدلى، والنحاس، لكنه عاد إلى دخول الوزارة عند تشكيل صدقى باشا لوزارته الأولى واستمر فيها عامًا (٢٠ يونيو ١٩٣٠ ـ ٢٢ يونيو ١٩٣١) كوزير للحربية والبحرية. وقد ترك الوزارة ليتولى رئاسة مجلس النواب الصدقى الذى جاء بانتخابات متعسفة.

(٣)

هكذا كان تاريخه السياسى يضعه على رأس الوزراء الذين عملوا فى الوزارات الإدارية التى تولت تسيير الأمور فى أثناء ثورة ١٩١٩، وفى الوزارات التى تولت الحكم فى أعقاب الانقلابات الدستورية على حكم الوفد، وقد كان قريبا من رئاسة الوزارة لو طال الأمد بهذه النوعية من الوزارات، وعلى الرغم من هذا الانتماء الواضح بعيدًا عن تيار الحركة الوطنية، فإنه لم يصنف عدوًا للشعب ولا لحركته الوطنية، وذلك بسبب سلوكه الخلقى القويم فى أداء هذه الوظائف والتزامه بالنزاهة والعدالة، وانحيازه إلى الأصالة والتقدم وروح الإنصاف.

(٤)

وقد اشتهر محمد توفيق رفعت باشا بشغفه بالأدب وقرض الشعر ولاسيما قصائد المناسبات الرسمية والإخوانيات، إلا أن شعره كان لنفسه ولم يسع إلى نشره، ووصف على الدوام بأنه كان ضليعا فى متن اللغة، وعرف عنه عنايته بتخير الألفاظ، وبجزالة الأسلوب، عناية تتجاوز المألوف حتى بين الأدباء، وكان يسعفه فى ذلك سعة علمه باللغة ومفرداتها، وربما دعاه تبحره فيها إلى إيثار الغريب حين يجده أحسن أداء أو أصح وضعا، وهو يعتبر بحق من أشد المحافظين على تقاليد اللغة وسننها.

وقد أهلته هذه السمعة لأن يكون بمثابة «القانونى الكبير» الذى اختير ضمن عشرة من المصريين لتأسيس مجمع اللغة العربية (١٩٣٣)، وقد انتخب رئيسا لهذا المجمع، وظل محتفظا بهذه الرئاسة حتى توفى، وقد عرف بإخلاصه فى خدمة اللغة العربية والذود عنها، وسعيه الدائب لتحقيق أغراض المجمع، وكفايته الفائقة فى الاضطلاع بشؤون المجمع على اختلاف نواحيها.

(٥)

وقد تولى افتتاح ندوات المجمع ودوراته، كما تولى (١٩٤٢) استقبال ثلاثة من الأعضاء هم: الدكتور على توفيق شوشة باشا، والأستاذ الشيخ أحمد إبراهيم بك، والأستاذ أنطون الجميل بك.

(٦)

ويدور معظم كتاب «الرجال أسرار» الذى ألفه زوج ابنته حسن الشريف حول حياته وإنجازاته وعلاقاته السياسية. وقد صدر هذا الكتاب فى سلسلة كتاب اليوم، وتدارسنا كثيرا من نصوصه فى كتبنا الأخرى، كما تدارسنا إنجازات توفيق رفعت فى التعليم، وحياته الشخصية فى كتب أخرى .

ألقى فارس نمر كلمة فى تأبينه نشرت فى الجزء السادس من مجلة مجمع اللغة لعربية. وألقى عبد الحميد بدوى كلمة عنه فى حفل استقباله عضوا بالمجمع، مجلة مجمع اللغة العربية، نشرت أيضا فى الجزء السادس من مجلة المجمع.

الفصل السادس

د. أحمد لطفى السيد باشا

١٨٧٢ ـ ١٩٦٣

(١)

ولد أحمد لطفى السيد باشا فى أسرة موسرة فى قرية برقين مركز السنبلاوين مديرية الدقهلية، وكان والده السيد باشا أبو على عمدة القرية وكذلك كان جده على أبو سيد أحمد باشا وألحق بالكتاب فتلقى التعليم التقليدى فى ذلك الوقت، ثم ألحق بمدرسة المنصورة الابتدائية ونال الشهادة الابتدائية (١٨٨٥)، ثم انتقل إلى مدرسة الخديوية ونال فيها الشهادة الثانوية (١٨٨٩)، والتحق بمدرسة الحقوق الخديوية ونال شهادتها (١٨٩٤)، وزامل فيها إسماعيل صدقى ومحمد توفيق نسيم وإسماعيل الحكيم والد توفيق الحكيم، وعين فى النيابة كاتبا ثم سكرتيرا للنائب العمومى، وترقى وكيلا للنيابة ونقل إلى نيابة بنى سويف.

وفى أثناء ذلك شرع فى تكوين جمعية سرية مع صديق عمره عبد العزيز فهمى باشا، ونشطت الجمعية حتى علمت بها السلطات، وأنهى صديقه الزعيم مصطفى كامل باشا ذلك الخبر إليه، وعن طريق مصطفى كامل التقى لطفى السيد بالخديو عباس، الذى دفعه إلى السفر إلى جنيف لكى يكتسب الجنسية السويسرية ثم يعود إلى مصر لينشئ جريدة تقاوم الاحتلال متحصنة بجنسية صاحبها.

(٢)

نفذ أحمد لطفى السيد فكرة الخديو لكنه بحكم اتصاله السابق بالأستاذ جمال الدين الأفغانى

كان حريصا على تجديد حبال الود به وبالشيخ محمد عبده وبسعد زغلول وقد لقيهم فى سويسرا، وهكذا تغير الخديو من ناحيته، ولم يكن هذا بغريب على الخديو الذى كان كثير التقلب والذى تغير كذلك على مصطفى كامل.

(٣)

شارك لطفى السيد صديقه مصطفى كامل فى تأسيس الحزب الوطنى (القديم) الذى رعى الخديو نفسه تأسيسه كجمعية سرية، وقد تأسس هذا الحزب فى منزل مَنْ أصبح زعيمه الثانى: محمد فريد بك، وقد اشترك مع هؤلاء الثلاثة كل من لبيب محرم (شقيق عثمان محرم باشا) ومحمد عثمان (والد أمين عثمان باشا) وسعيد الشيمى.

على أن تكوين لطفى السيد قد أفاد من هذه التجربة ومن غيرها، وقد كون عقيدته السياسية منذ ذلك الحين المبكر، وجعل أساسها الاعتماد على تقوية العنصر الوطنى الذاتى، ولعله أول المنادين بهذه الفكرة على هذا القدر من الأهمية، وبهذا القدر من الوضوح.

(٤)

كان لطفى السيد هو الذى رفع شعار «مصر للمصريين» عاليًا، وكان يكثر من ترديد كلمة «الديمقراطية» وأخواتها ومن ثم عدّ بمثابة رائد الفكر الليبرالى، كما أنه واصل دعوة الإمام محمد عبده إلى إصلاح التعليم، وقد صارح لطفى السيد الخديو برأيه كتابة فى أن يتولى الخديو بنفسه قيادة حركة إصلاحية فى التعليم العام.

وقد تكونت للطفى السيد فى مرحلة مبكرة من حياته ملامح شخصية فكرية متميزة (وإن لم تكن براقة).

وكانت لفلسفته جوانب من التميز فقد كان إيمانه بالتطور والتقدم عميقا، وقد ظهرت ملامح فلسفته فيما تولاه من مناصب ومسؤوليات، وما شارك فيه من تكوين جيل تلامذته.

وكان يتوسل إلى تحقيق أهدافه بالوسائل الهادئة، من ذلك أنه يسّر دخول الفتيات الجامعة

المصرية بقبولهن دون ضجة، وبرعايتهن عن قرب، ولهذا ترى من تلاميذه «بنت الشاطئ» التى لم تدرس عليه دراسة مباشرة لكنها أفادت من تشجيعه ومن المناخ الذى هيأه لها ولأضرابها.

كما كان على علاقة نموذجية بطلاب الجامعة فى الكليات المختلفة، ولهذا كان من تلاميذه المقربين كثير من طلاب العلوم والهندسة والطب.

(٥)

وكانت علاقته بالأساتذة والعمداء علاقة رائد أو زميل متقدم لا علاقة رئيس، وهكذا كانت علاقته متميزة بعلى باشا إبراهيم عميد الطب، وعلى مصطفى مشرفة عميد العلوم، والسنهورى عميد الحقوق.. وغيرهم، وهو ما لم يتوافر بالقدر ذاته لخلفائه فى قيادة التعليم الجامعى الذين لم تكن بعض علاقاتهم تخلو من استقطابات عنيفة، وفى مقدمة هؤلاء طه حسين الذى كان كثير الاصطدام بزملائه.

وكان أحمد لطفى السيد حريصا على حماية الحريات العامة والحرية الأكاديمية على حد سواء، وقد تولى بنفسه قيادة معارك كثيرة فى هذا السبيل. كما كان حريصا على القيم الجامعية والمستوى العلمى، ولم يكن يؤمن بأهمية الأسوار الجامعية، أو قواعد الحضور والغياب لكنه كان يؤمن بأهمية التقاليد ومستوى التقييم والأداء.

(٦)

بعد تجربته فى تأسيس الحزب الوطنى كان لطفى السيد من مؤسسى حزب الأمة، وقد هيأ له موقعه فى «الجريدة» ـ وهى الصحيفة التى اتخذها الحزب لسانا لحاله –أن يكون سكرتير الحزب: شارك فى تأسيس شركة خاصة للجريدة وللمطبعة (٢٣ يونيو ١٩٠٦) واختير مديرًا للجريدة ورئيسًا لتحريرها (أى رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير) لمدة عشر سنوات وصدر عدد الجريدة الأول (٩ مارس ١٩٠٧) وبعد ستة شهور أعلن عن تحويل الجمعية العمومية لشركة الجريدة إلى حزب هو حزب الأمة.

حفلت مقالات لطفى السيد فى الجريدة بالدعوة إلى الوطنية المصرية وممارسة السلطة الفعلية ومعارضة تركيا، وكانت مقالاته فى «الجريدة» نموذجا لطراز جديد من المقال السياسى والاجتماعى.

وفى الجريدة أصبح لطفى السيد بمثابة منارة مبكرة للفكر الجديد الذى وجه الحياة السياسية المصرية منذ ذلك الحين.

واحتفظ لطفى السيد بمكانته المتقدمة فى الجريدة، والحزب، وظلت الجريدة تصدر حتى ٣٠ يونيو ١٩١٥.

(٧)

وفيما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى كان واحدا من السبعة المؤسسين للوفد المصرى مع سعد زغلول، وعبد العزيز فهمى، وعلى شعراوى، ومحمد على علوبة، ومحمد محمود، وعبد اللطيف المكباتى، وربما أن دوره ودور صديقه محمد محمود يأتيان بعد دور الزعماء الثلاثة الذين قابلوا المعتمد البريطانى فى بدء الثورة.

(٨)

لكنه على كل الأحوال لم يكن من المنفيين مع سعد لا إلى مالطة ولا إلى سيشل، وإن شارك فى الوفد المصرى إلى مؤتمر الصلح فى باريس، وقد كانت له ميول معارضة لآراء وتوجهات سعد زغلول، ومن ثم فإنه كان من الذين انضموا إلى عدلى يكن فى الانشقاق الأول على الوفد، كما كان واحدا من مؤسسى الأحرار الدستوريين (٣٠ أكتوبر ١٩٢٢) (وإن لم يظهر اسمه فى هياكل الحزب نظرًا لشغله وظيفة حكومية)، وكان انضمامه إلى هذا الحزب بمثابة رابع تحول حزبى فى حياته بعد «الوطنى» و«الأمة» و«الوفد».

ومن العجيب أن هذا التحول دونًا عن تحولات غيره من الساسة على مدى القرن العشرين، كان تحولا طبيعيا متسقا مع اتجاهات صاحبه ونزوعه الفكرى. ولهذا فإننا لا نرى اتهاما عنيفًا له لا بالانتهازية السياسية، ولا بالتحول عن مبادئه.

(٩)

منذ ترك لطفى السيد النيابة العامة بسبب نشاطه السياسى، تنوعت نشاطاته ووظائفه، فقد عمل بالمحاماة طيلة عامين (١٩٠٥ ـ ١٩٠٧)، انتقل بعدهما إلى مواقع متتالية فى قيادة الحركة الفكرية فى مصر بدءا من التحرير فى الجريدة (١٩٠٧)، وسكرتارية حزب الأمة (١٩٠٨)، وإدارة دار الكتب (١٩١٦)، ووكالة الجامعة الأهلية قبل أن يتولى إدارة الجامعة المصرية (١٩٢٥- ١٩٤٠)، ورئاسة مجمع اللغة العربية (١٩٤٥ ـ ١٩٦٣).

(١٠)

ونظرا لمكانة لطفى السيد فى مجلس إدارة الجامعة الأهلية فإنه عند تعثرها ماليا وضع مقترحًا بتحويل «الجامعة الأهلية» إلى «كلية آداب» وعرض مقترحه على الملك فؤاد، الذى فكر فى أن تعتبر الجامعة الأهلية كلية آداب وأن تنضم إلى الجامعة الحكومية بهذه الصفة، وقد أبلغ لطفى السيد مجلس إدارة الجامعة بهذا وتمت الموافقه عليه قبل أن يختار هو نفسه مديرًا للجامعة الجديدة.

وفى عهده ضمت للجامعة المدارس العليا الأربع التي كانت تخرج أصحاب المهن الكبرى لتصبح كليات الطب والهندسة والتجارة والزراعة.

(١١)

مارس لطفى السيد دورا أدبيًا وتربويا وتعليميا وثقافيا نادر الوجود، من خلال مواقعه فى «الجريدة» وفى «الجامعة الأهلية»، ثم فى «دار الكتب» و«الجامعة المصرية» و«مجمع اللغة العربية».

وقد شهدت هذه المؤسسات الخمس نشاطا دؤوبا وهادئا لرجل تشبع بأفكار فلسفية متزنة، وبأفكار عصرية معتدلة، وبأفكار تقدمية ممكنة التنفيذ، وكان أثره فى تشجيع النشاط الأدبى حاسمًا، كما كانت رؤيته الفكرية تفرض نفسها على روح النقد الأدبى فى عصره.

وكان بكتاباته ومناقشاته ومجالسه وسلوكه وتوجيهاته وتأشيراته وتعليقاته وتصرفاته يشع قدرا هائلا من التأثير فى المحيطين به من أجيال متعددة اقتربت منه ونالت حنوه وعطفه من

الكتاب والأكاديميين على حد سواء.

(١٢)

ولعل أبرز تلاميذه طه حسين نموذج لهذا، فهو الذى احتضنه وهو لا يزال طالبا فى الأزهر، وأصلح ما بينه وبين شيخ الأزهر حسونة النواوى، وهو الذى دفعه إلى الدراسة فى الجامعة الأهلية وشجعه عليها، وهو الذى ساعده فى نوال بعثة إلى الخارج، وهو الذى راجع رسالته للدكتوراه وأجازها على حسب ما كان نظام الجامعة يقضى به، وهو الذى رعاه بعد عودته من الخارج، فكانت رعايته له وهو أستاذ وعميد تفوق عنايته به وهو تلميذ.

وقد سانده بقوة وذكاء عندما حدثت أزمة بسبب كتابه «فى الشعر الجاهلى» كما سانده عندما نقلته حكومة صدقى على غير إرادته إلى وظيفة غير جامعية.

وقد بذل جهدا متواصلا فى توجيه كثيرين من جهابذة الجيل من طيف واسع شمل مصطفى عبد الرازق، ومحمد حسين هيكل وغيرهما من أعلام الفكر.

(١٣)

ومن الطريف أن أروع وأبلغ قصائد التأبين التى قيلت فى لطفى السيد كانت تلك التى أنشدها الأستاذ العقاد فى تأبينه، وهى قصيدة حافلة بتقدير عميق لقيمة لطفى السيد الأدبية والفكرية والإنسانية كذلك.

ويمكن لنا القول: إن أستاذية لطفى السيد للأدباء والنقاد والكتّاب كانت أستاذية من نوع متفرد، وكأنه خلق فى المقام الأول لأدائها لا للكتابة ولا للتأليف ولا للإدارة ولا للسياسة مع تفوقه فى كل هذه الميادين، لكن سلوكه وأداءه كانا يصبان على الدوام فى تيار نهر الأستاذية التى يتمثلها الجيل التالى له، وقد كان ولايزال صاحب أطول فترة قضاها رئيس لجامعة مصرية فى موقعه، لكنه مع هذا قضى هذه الفترة على فترات متقطعة وليس على اتصال، فقد كان كثيرا ما يعبر عن احتجاجه على السياسة بالاستقالة أو باعتزال المنصب.

وقد عمل على تعديل قانون الجامعة بعد عهد صدقى حتى لا ينقل أستاذ منها إلا بعد موافقة مجلس الجامعة.

وقد منحته الجامعة الدكتوراه الفخرية (أبريل ١٩٤١) بعد أن ترك رياستها لآخر مرة.

(١٤)

لم يكن لطفى السيد موفقا فى أولى جولاته الانتخابية البرلمانية حين رشح نفسه للجمعية التشريعية (١٩١٣)، لكن هذا لم يدفعه إلى معاداة الشعب على طريقة زميله صدقى أو غيره، وإن دفعه إلى الحذر من تكرار التجربة.

وعلى الرغم من أن لطفى السيد فضل الانتماء اللاوفدى فى مسلكه السياسى طيلة الحقبة الليبرالية (١٩٢٤ ـ ١٩٥٢)، فإنه لم يكن خصيما عنيفا ولا حتى خصيمًا متوسط الخصومة للوفد ولا لغيره، حتى ليمكن القول بأنه لم يكن خصيما لأحد، ومع أنه شارك فى بعض وزارات الأقلية، إلا أنه يمكن القول بأن مشاركاته انحصرت فى تلبية دعاوى الصداقة القديمة.

كان أول توليه للمناصب الوزارية فى وزارة محمد محمود (١٩٢٨)، وذلك على الرغم من قدم عهده بممارسة السياسة وقد كان حريصًا على أن يشير فى مذكراته إلى أنه قبل هذه المشاركة تحت إلحاح صديقه فحسب، وقد تكررت مشاركته الوزارية مع محمد محمود فى وزارته الثانية (نهاية ديسمبر ١٩٣٧)، وإن كان قد عين كوزير دولة، وهى الدرجة التى عين فيها رؤساء الأحزاب والشخصيات الكبرى التى ساهمت فى هذه الوزارة التى سميت بوزارة الشخصيات الكبيرة، وقد استمر فى وزارة محمد محمود الثالثة كوزير للداخلية، وهو المنصب التالى فى الأهمية لرئيس الوزراء، ومع أنه كان يفضل تولى وزارة المعارف إلا أنه قبل رجاء تلميذه هيكل فى أن يتولى الأخير المعارف، وأن يتولى هو الداخلية.

وقد تولى أحمد لطفى السيد باشا أربع وزارات فقط هى: المعارف، والدولة، والداخلية، والخارجية، وهى تركيبة غريبة، لكن شخصيته الكبيرة كانت تسمح له بمثل هذا.

بدأ لطفى السيد وزيرًا للمعارف العمومية طيلة عهد وزارة محمد محمود باشا الأولى (يونيو ١٩٢٨ ـ أكتوبر ١٩٢٩)، وحقق فى هذه الفترة إنجازات واضحة فى إطار سياسة إصلاحية بارزة تبناها ونجح فيها محمد محمود باشا.

وفى وزارة محمد محمود باشا الثانية (ديسمبر ١٩٣٧ ـ أبريل ١٩٣٨) أسند إليه منصب وزير الدولة،

وقد كان مرشحًا لوزارة المعارف، لكنه لم يجد بأسا فى أن يتنازل عنه لبهى الدين بركات باشا، فلما انتخب بهى الدين بركات باشا رئيسًا لمجلس النواب تولى أحمد لطفى السيد وزارة المعارف بالنيابة.

وفى وزارة محمد محمود باشا الثالثة بدأ بتولى وزارة الدولة أيضًا، لكنه بعد عشرين يومًا تولى وزارة الداخلية فى الفترة الباقية من عمر هذه الوزارة (١٨ مايو ١٩٣٨ ـ ٢٤ يونيو ١٩٣٨)، وكان يرغب أيضًا فى العودة إلى تولى المعارف ولكن تلميذه هيكل باشا تدلل عليه فقبل أن يتولى هو الداخلية وترك المعارف لهيكل (!!)

أما فى وزارة صدقى باشا الثالثة فإنه عين وزير دولة، وتولى وزارة الخارجية منذ بداية عهد الوزارة فى فبراير ١٩٤٦ وحتى ١١ سبتمبر ١٩٤٦، ثم أصبح نائبًا للرئيس فى ١١ سبتمبر ١٩٤٦، لكنه استقال بعد شهرين بالضبط فى ١٠ نوفمبر ١٩٤٦ قبل استقالة الوزارة بشهر بالضبط فى ٩ ديسمبر ١٩٤٦.

(١٥)

وقد كانت هذه هى آخر مشاركات لطفى السيد الوزارية، وقد كان صدقى زميل دراسته، لكن لطفى السيد لم يستجب لإلحاحه بالعمل معه إلا فى المرحلة التى نضج فيها صدقى سياسيا وكف عن إصراره على التجبر والدكتاتورية المطلقة، وقد كُرّم لطفى السيد فى هذا الوزارة بمنصب نائب رئيس الوزراء، وهو المنصب الذى لم ينله غيره طيلة عهد الملكية (وإن كان رشدى باشا قد ناله فى عهد السلطنة). وكان لطفى السيد من أعضاء هيئة المفاوضة مع البريطانيين، لكنه انضم إلى الذين أعلنوا معارضتهم لصدقى باشا فى نهاية سياسته التفاوضية، وخرج من الوزارة كما ذكرنا قبل نهاية عهدها.

ومن الطريف أنه لم يشترك فى وزارتى إسماعيل صدقى باشا الأولى والثانية، وكانتا متصلتين، ويبدو أن إسماعيل صدقى وقد لقى من غدر الناس ما لقى فضل الرجوع إلى الصداقة القديمة، ويبدو أن أحمد لطفى السيد هو الآخر قد غلب الجانب العاطفى والمعنوى حين قبل الاستجابة لزميليه فى الاشتراك فى الوزارة فى المرات التى تولاها، ويؤكد ظنى ما يروى عن أن كلا من الرجلين (محمد محمود وإسماعيل صدقى) قد عاتب أحمد لطفى السيد حين فكر فى الاعتذار عن المشاركة معهما فى الحكم.

ومن العجيب أن أحمد لطفى السيد استمر مع محمد محمود باشا طيلة الوزارات الثلاث الأولى والثانية والثالثة، لكنه لم يشترك معه فى وزارته الرابعة.

كذلك فإنه ترك وزارة صدقى الثالثة قبل نهايتها بشهر، على الرغم من أنه فى الشهرين الأخيرين له فيها قد صُعد إلى درجة نائب رئيس الوزراء، وهى الدرجة التى لم ينلها غيره (كما أشرنا) بالإضافة إليه فى تاريخنا السياسى قبل الثورة إلا حسين رشدى باشا فى وزارة عدلى باشا الأولى، وكان رشدى باشا رئيسًا سابقًا لأربع وزارات. لكن عكوف أحمد لطفى السيد باشا عن المسؤوليات الوزارية كان فيما يبدو أقوى من إغراء كهذا.

هكذا شارك أحمد لطفى السيد باشا فى أربع وزارات مع رئيسين للوزراء هما صديقاه: محمد محمود باشا، وإسماعيل صدقى باشا، وتولى فى هذه الوزارات أربع وزارات فقط، وتولى كل مرة واحدة فقط (فيما عدا الدولة التى تولاها كلقب - تكريما - فيما يبدو مع الوزارات التى تولاها).

(١٦)

وقد ظل لطفى السيد بعيدا بدرجة كبيرة ومعقولة عن القصر الحاكم فى عهد الملك، وفى عهد الجمهورية على حد سواء، وكان الملك فؤاد لا يخفى ضيقه به فى بعض الأحيان، وقد سجل هذا الضيق (بطريقة بروتوكولية ذكية تتناسب مع ما عرف عن الملك فؤاد) فى منحه الباشوية للدكتور على باشا إبراهيم حين كان وكيلا للجامعة قبل أن يمنحها للطفى السيد الذى يشغل منصب المدير.

وكان موقف الملك فاروق منه شبيها بموقف والده، لكنه فى المقابل ظل كبير النفس، قادرا على الاستحواذ على الاحترام، وإن لم يمنعه هذا من بعض المداهنة والملاينة للقصر من أجل تحقيق الطلبات المادية للجامعة ولغيرها من المؤسسات التى تولى أمرها.

(١٧)

ومنذ ١٩٤٥ آثر لطفى السيد مجمع اللغة العربية بالقاهرة بنشاطه، وقد كان حفيا بهذا النشاط مقدرا له، شكلاً وموضوعًا، حتى إنه كان قد تولى إنشاء مجمع لغوى من خلال منصبه كمدير لدار الكتب (١٩١٦ - ١٩١٧)، وقد ساعد لطفى السيد بخبرته وحنكته على صياغة تقاليد مجمعية راقية لا يزال المجمع يأخذ بها، وقد استمر أثره المباشر فى المجمع حتى عهد قريب.

وعقب قيام الثورة (١٩٥٢) عرض عليه تولى منصب رئيس الجمهورية، وحمل العرض عليه إليه ابن أخته الأستاذ أحمد لطفى واكد، وكان واحدًا من الضباط الأحرار، غير أنه اعتذر اعتذارا قاطعا من دون تمنع ومن دون رغبة، وكان ـ بعد النحاس باشا ـ ثانى زعيم سياسى أدرك حقيقة التوجه الحاكم لرجال الجيش فى تعاملهم مع السلطة، ولهذا السبب عاش البقية الباقية من حياته مكرّما من رجال العهد الجديد دون أية درجة من درجات الشد والجذب.

(١٨)

وقد جنب لطفى السيد بحكمته المجمع اللغوى بعض المشاكل السياسية التقليدية فى عهد الثورة، كما استطاع مع عبد الحميد بدوى باشا أن يحافظ للجمعية الخيرية الإسلامية على بعض أوقافها، وعلى بعض الحرية فى إدارة أوقافها وأملاكها، ثم إنه كان أول من نال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية عند منحها عام ١٩٥٨.

وقد ظلت مجالسه فى نادى محمد على (نادى التحرير فيما بعد) وبيته ومكتبه فى المجمع بمثابة صالونات فكرية تجمع رجال السياسة، وكبار المفكرين المصريين من أمثال محمد كامل حسين، وعبد الحميد بدوى، وطه حسين، وإبراهيم مدكور، والعلماء من أمثال: أحمد زكى، وعبد الحليم منتصر، ورجال الصحافة والتعليم الجامعى وغيرهم.

(١٩)

وفيما يتعلق باللغة فقد تطورت أفكار لطفى السيد ونضجت مع الزمن وإن بقيت فى إطار المحافظة على اللغة والاعتزاز بمفرداتها القديمة، وعلى حين كان لطفى السيد مع مجمع دار الكتب حريصًا على إحياء كلمات قديمة لمعان جديدة، فإنه كان يقترح على مجمع اللغة العربية فى أثناء رئاسته له أن يقوم المجمع بجمع المصطلحات الفنية التى يستخدمها العمال فى معاملاتهم والتجار فى متاجرهم وأسواقهم، والزراع فى مزارعهم، وأن يضعها المجمع فى معجم خاص بعد صياغتها وفق الأوزان العربية القديمة.

أما تأثيره فى تعليم الفلسفة فهو تأثير باق إلى الآن، فقد قدم بعض الكتب الأصول فى الفلسفة اليونانية فى لغة عربية جميلة محببة إلى الدارسين، ورسم حدود الاهتمام بالقضايا الفكرية فى

إطار من العقل الناقد دون أن يجترئ على أصول الفلسفة القديمة ومناهجها، فقد كان يعظمها تعظيم العارفين، وإن لم يكن هذا يحول بينه وبين تناولها بالفحص والتمحيص والنقد والتعليق. ومن مترجماته عن أرسطو: «علم الطبيعة» و«السياسة» و«الكون والفساد» و«الأخلاق».

(٢٠)

وقد تولى صهره الأستاذ إسماعيل مظهر جمع بعض مقالاته فى كتب مطبوعة منها: «صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية»، و«المنتخبات» جزآن، و«تأملات فى الفلسفة والأدب والسياسة الاجتماعية».

وقد أملى بعض مذكراته على الأستاذ طاهر الطناحى الذى نشرها باسم صاحبها فى كتاب صدر عن «دار الهلال» بعنوان «قصة حياتى». وقد نشرت قبل هذا فى المصور (سبتمبر ١٩٥٠).

وقد أشرت فى مقدمة كتابنا هذا إلى أننا طبعنا مؤلفاته فى هيئة الكتاب فنفدت النسخ المطبوعة يوم صدورها.

(٢١)

ومذكرات لطفى السيد عجيبة إلى حد بعيد، وقد كونها هو باقتدار شديد من موضوعات كتبها قبل هذا مع بعض فقرات ربط تلقى الضوء على المراحل المختلفة من حياته، وربما يصدق القول القائل بأن الرجل لم يكتب من أجل هذه المذكرات أكثر من عشر صفحات على أكثر تقدير، واستعان بأرشيف مقالاته القديمة ليكمل بها هذه المذكرات، وعلى الرغم من هذا فإن المذكرات تبدو متكاملة ومتماسكة ومعبرة عن مجمل حياة الرجل، وإن كان الرجل أكبر بكثير جدا من هذه المذكرات، وإن كانت حياته أيضا أكبر بكثير جدا من هذه المذكرات.

وتتميز هذه المذكرات بكثرة الشخصيات التى أفرد صاحبها صفحات خاصة للحديث عنهم، ومن هؤلاء الخديو عباس حلمى، وحسن عاصم، ومصطفى كامل، وقاسم أمين، وأحمد عرابى، وسعد زغلول، وتولستوى.

(٢٢)

وعلى الرغم من أن حديث لطفى السيد عن هذه الشخصيات مختصر إلى أبعد حدود

الاختصار، فإنه ليس مبتسرا بل إنه يصل إلى قمة التوفيق بوصوله مباشرة إلى الجوهر الذى يريد أن يتحدث عن الشخصية من خلاله، وهو يفعل هذا دون أن يتفلسف بنظريات جميلة من قبيل «مفتاح الشخصية» أو دون أن يغلب رؤيته الشخصية أو السياسية على الوقائع التى أمامه، بل إنه أقرب ما يكون إلى المريد الذى يريد أن يتعلم، ومع هذا فإنه يفرض فى سهولة ويسر أستاذيته وقدراته النقدية والتقييمية بكل ثقة وتمكن، وهو لا يجهد نفسه فى هذا السبيل، وإنما يتصرف بأقصى قدر ممكن من هدوء النفس، وهدوء البال، وراحة الضمير.

(٢٣)

لقب أحمد لطفى السيد بأستاذ الجيل - وهو لقب حقيقى - لأنه كان ذا أثر مباشر على كثيرين من رواد الفكر المصرى المعاصر.

ومع أنه لقى معارضة شديدة لبعض آرائه واتهم فى دينه وخلقه لكنه صمد للاتهامات ولم ينفعل بها وحافظ على نفسه بل لجأ إلى المحكمة وكسب قضايا على من افتروا عليه.

(٢٤)

وأخيرًا فهل لنا الآن أن ننقل ما يرويه هيكل باشا عن تنازل لطفى السيد عن تولى وزارة المعارف بناء على إلحاح تلميذه:

«كنت أتتبع هذه التطورات فى أمر استقالة الوزارة القائمة وتأليف الوزارة الجديدة بشغف مطمئن. فمنذ انتخب بهى الدين بركات (باشا) رئيسًا لمجلس النواب خلا منصب وزير المعارف. وقد استدعانى محمد (باشا) يومًا، وكان عنده لطفى السيد (باشا)، وسألنى عن الوزارة التى اختارها فى التأليف الجديد. وأبديت رغبتى فى أن أتولى وزارة المعارف، ولطفى (باشا) وزير سابق للمعارف منذ وزارة محمد محمود (باشا) الأولى فى سنة ١٩٢٨، وهو يرغب فى أن يعود للمعارف من جديد. عند ذلك عرض علىّ محمد (باشا) أن أكون وزيرًا للداخلية، وقال لطفى (باشا): ـ لقد عرفت من شؤون وزارة الداخلية، فى أثناء الحملة الانتخابية، ما يعاونك على تقلد شؤونها، كما يعاوننى سبق قيامى فى منصب وزير المعارف على العود لهذا المنصب».

«وأجبت: أنا لا أستطيع أن أعارض رغبة أستاذى لطفى (باشا). لكننى مع ذلك أطمع فى أن يدع لى وزارة المعارف، فأنا أشعر بأننى أقدر على تولى أمورها منى على تولى أمور وزارة الداخلية، وأن لطفى (باشا) أصلح منى لتولى شؤون وزارة الداخلية لفضله ومكانته».

ثم يعقب الدكتور هيكل فيقول:

«والحق أن تجربتى أثناء الحملة الانتخابية لم تكن لترغبنى فى منصب وزير الداخلية، فهذه الوزارة تقتضى وزيرها فى مصر مظهرًا ضخمًا، وعملًا لا شىء من الضخامة فيه. فهى أولا وقبل كل شىء وزارة المحافظة على الأمن والنظام، أى وزارة البوليس والعمد والخفراء. ومطالب الناس فى شؤون البوليس والعمد والخفراء لا حصر لها، تقوم على تحرى اعتبارات محلية لم أكن ضليعًا فيها يومًا من الأيام. هذا إلى أن الإصلاح فى وزارة الداخلية يقتضى فى نظرى قلب نظامها من أساسه. فأنا من أنصار اللامركزية إلى أبعد مدى. أنا أؤمن بأن الخير كل الخير فى أن تكون الإدارة المحلية والهيئات النيابية المحلية هى صاحبة الشأن فى أمور الإقليم كله. وكنت أشعر يومئذ بأن هذا الانقلاب فى النظام لا يتفق والتصور السائد فى أذهان أولى الأمر لطريقة الحكم. فإذا أنا توليت وزارة الداخلية ولم أستطع القيام بهذا الإصلاح كان شأنى فيها يكاد يقتصر على تصريف الأمور المتعلقة بالأمن والنظام، أى بالبوليس والعمد والخفراء ورؤسائهم من رجال الإدارة. وهذه مهمة لم أضطلع ببحثها من قبل، وهى على كل حال لا تروقنى».

«تلطف أستاذى لطفى (باشا) فنزل لى عن وزارة المعارف وقبل هو أن يتولى وزارة الداخلية».

من الضرورى أن نتحفظ على رواية هيكل فى جانب واحد فقط يتعلق بما روينا فى النص الذى كتبناه من تدقيق فى التواريخ..

ومن الضرورى أن نتأمل بصدق مدى إعراض المفكرين فى ذلك الوقت عن وزارات النفوذ الحقيقى!!

فضلاً عن أن نرى الدكتور هيكل وهو يرى لطفى السيد أقدر منه على تولى وزارة الداخلية!!

الفصل السابع

د. طه حسين

عميد الأدب والسياسة
والإصلاح الاجتماعى

(١)

يُعرف «طه حسين» على أنه عميد الأدب العربى، والحقيقة أن قيمة طه حسين تفوق هذه التسمية الجميلة بمراحل.. ذلك أن طه حسين لم يكن ملكا للأدب العربى وحده، ولكنه كان أيضا ملكا للسياسة وللحزبية وللإصلاح الاجتماعى ولعلوم التاريخ والاجتماع وغيرها من العلوم والمجالات التى أبدع فيها هذا الرجل العظيم.

(٢)

وقد كانت حياة طه حسين نموذجا بارزا للنهايات الجميلة التى لا تبشر بها البدايات، لكنها كانت فى الوقت نفسه تعبيرا عن الرقى الطبيعى الذى تحققه الشخصية السوية الذكية إذا ما واتتها ظروف الاختيار مرة بعد أخرى، فقد بدأ طه حسين نشاطه الحزبى فى صحف الأقلية، وانحاز فى بدايات حياته ضد الشعب، بل وصل به الأمر أن يكون بمثابة رئيس تحرير جريدة أصدرها القصر، لكنه وصل فى نهاية مشواره السياسى أن يكون وزيرا فى وزارة الوفد الأخيرة، وأن يكون من رجال مصطفى النحاس باشا المقربين.

الأمر شبيه بهذا فيما يتعلق بالإسلاميات التى بدأ طه حسين بترديد بعض أقوال المستشرقين فيها، وبالانحياز ضد منطق العقل وضد روح القلب المؤمن، وما زال رويدا رويدا يقترب من

جوهر الحقيقة حتى كتب إسلامياته الخالدة، وحتى كان من أبرز من تناولوا التاريخ الإسلامى بالمعرفة والحب معا.

(٣)

وعلى صعيد ثالث كان طه حسين قد أقام الدنيا بآرائه فى الشعر الجاهلى وانتحاله ثم إذا بطه حسين يتحول بدراسة النقد الأدبى عاما بعد عام، حتى أصبح من أشد النقاد إنصافا لكل محاولة أدبية معاصرة.

وقد تطور أسلوبه فى النقد من نقد لغوى يعنى بالأخطاء النحوية وتسجيلها إلى نقد انطباعى متمكن من أدوات الثقافة وأوعية الجمال، كما تحولت دراساته الأدبية من ترديد لمقولات سابقة وفرضيات مثيرة إلى رؤى شاملة وعميقة ومتزنة تسبق ما قبلها وما بعدها إلى مكانة متقدمة بين كتابات العرب عن تاريخهم.

(٤)

لست أريد أن أمضى فى ضرب أمثلة على التطور العضوى والحيوى الذى أصابه طه حسين على مدى تاريخه فى الحياة العامة، وهو تاريخ طويل لكننى أريد فى المقابل أن أفصل القول فى بعض أفضال هذا الرجل على هذه الحياة العامة.

فطه حسين صاحب فضل كبير فى سياسات التوسع فى التعليم الجامعى، ومع الاعتراف بأنه قبل أن يقدم للمجتمع نوعا من التعليم الجامعى أقل مستوى من المستوى الذى كان قد أتيح فى جامعة القاهرة لأول عهدها حين أصبحت جامعة حكومية فى ١٩٢٥، فإن أحدًا لا يستطيع أن ينكر قيمة خطوات طه حسين المشاركة فى تأسيس جامعة الإسكندرية (١٩٤٢)، ثم المؤدية إلى تأسيس جامعة إبراهيم «عين شمس» «١٩٥٠»، ومحمد على «أسيوط» وطنطا بعد ذلك، ذلك أن هذه الخطوات قد أتاحت ما كان غير ممكن الإتاحة فى وقته، وما كان أحد يستطيع أن يقول بأن تأخر تأسيس هذه الجامعات كان كفيلا فى حد ذاته بأن تخرج هذه الجامعات على مستوى أفضل من هذا المستوى الذى خرجت عليه بمشاركة طه حسين.

(٥)

على أن الإنصاف يقتضينا أن نشير إلى أن طه حسين قد حاول من خلال وسائل ذكية أن يعوض النقص الحاد فى الإمكانات والموارد، وقد اختار بنفسه عددا من القيادات الجامعية التى اتسمت بقدرات فكرية قادرة على تقديم أكبر زخم ممكن لهذه المؤسسات الجامعية القائمة، ونحن نعرف أنه هو الذى اختار أستاذ الدراسات العليا فى كلية طب قصر العينى الدكتور محمد كامل حسين، ليكون أول مدير لجامعة عين شمس، كما أنه من خلال وزارة الوفد (١٩٤٢ - ١٩٤٤) وفر الدرجات المالية لجامعة الإسكندرية ودفع بشباب أعضاء هيئة التدريس فى كليته والكليات الأخرى إلى أن ينالوا مراتب أعلى فى جامعة الإسكندرية (فاروق الأول)، مقدما بهذا أقوى حافز ممكن لإحداث انقسام ثنائى مطلوب فى الجامعة الأولى، لتكون الجامعة الثانية قريبة المستوى من الجامعة الأولى.

وقد كان طه حسين محبذا للفكرة التى جعلت اسم الجامعة الثانية على اسم صاحب العرش، واسم الجامعة الثالثة على اسم جده الثانى (إبراهيم باشا)، واسم الجامعة الرابعة على اسم جده الأعلى رأس الأسرة المالكة (محمد على باشا).

(٦)

ومن الطريف هنا أن نذكر أن أول تفكير رسمى فى إنشاء جامعة طنطا واكب واقعة خلاف شهيرة بين النحاس باشا وطه حسين باشا من ناحية، وبين عميد الطب الجراح الكبير الدكتور محمد عبد الوهاب مورو باشا من ناحية أخرى، فقد صمم مورو على تحديد أعداد المقبولين بكلية طب قصر العينى برقم معين، على حين كانت وزارة الوفد قد وعدت بعدد أكبر، ومضت فى تنفيذ وعودها خطوات واسعة إلى الأمام.

ولم يكن هناك من حل لهذا الخلاف إلا إعلان أن يسجل هذا العدد، الزائد على الإمكانات المتاحة، على أنه مقبول فى كلية طب طنطا، وأن يتم تخصيص موازنة مالية للإنفاق على الموارد التعليمية المطلوبة لتعليم هذا العدد وإلحاقه بدراسة الطب.

(٧)

بدأت بهذا الحديث عن التوسع فى التعليم الجامعى لأُبَسِّط للقراء ما أحدثه طه حسين فى التعليم العام بصيحته المشهورة بأن يكون التعليم كالماء والهواء، وسأتناول جانبا واحدا من هذه القضية، وهو جانب المعلمين.

فقد كان المعتاد أن يمضى الخريجون بعد تخرجهم فى كلياتهم الجامعية المتخصصة عامين فى معاهد التربية العليا كى تؤهلهم للعمل كمدرسين، وهكذا كان المدرسون الذين يتولون التعليم العام من جيل أساتذتنا الذين أدركناهم حائزين على درجات عليا فوق الجامعية، فلما أطلق طه حسين دعوته الشهيرة قامت حكومة الوفد بتعيين كل من كان مؤهلا بهذه الدرجات الجامعية العليا ولا يزال يدرس فى معهد التربية العليا بجداول منقوصة وبمكافآت تقل عن المرتب، حتى إذا ما أتموا دراستهم ثُبِّتوا فى وظائفهم، مع أن بعضهم كان ينتظر شهورًا أو سنوات بعد إتمامه دراسة المعهد العالى للتربية حتى يتم تعيينه، ثم عمد إلى غيرهم من خريجى الجامعة فشجعهم على الالتحاق بمعاهد التربية، كى ينالوا الحظ بالتعيين.

كذلك عين خريجى الشهادة التوجيهية ثم عين خريجى البكالوريا الذين وقفوا بتعليمهم عند شهادة الثقافة، ثم عين كل مَنْ كان متاحا من راسبى هذه الشهادات، ومنحهم درجات مالية منخفضة.

وهكذا تمكن طه حسين وبفضل تعاون غير محدود من حكومة الوفد أن يوفر خلال فترة أقل من عامين كل الموارد البشرية لتعليم أعداد متزايدة فتحت أمامها مصاريع العلم على نحو مفاجئ.

(٨)

ومن الحق أن نشير إلى أن خطوة طه حسين فى ١٩٥٠ كانت بمثابة الخطوة الأخيرة فى مشوار طويل شارك فيه مع أسلافه من وزراء المعارف الوفديين، وكان أحمد نجيب الهلالى أبرز هؤلاء، وتكفينا الإشارة إلى تقرير تطوير التعليم فى عهد الهلالى، وإلى أن وزارة الوفد الأولى

فى ١٩٢٤هى التى استنت السماح بالملحق فى التعليم العام، وإلى أنها هى التى مهدت لزيادة سنوات التعليم الثانوى إلى خمس سنوات مع إتاحة تعليم مواد لم تكن تدرس من قبل كالتاريخ الطبيعى، وفتحت المجال أمام الأنشطة الطلابية.

وهكذا كان طه حسين يعمل فى ظلال حزب وتحت مظلة سياسية حزبية تهدف إلى إفادة جموع الشعب، ولم يكن يعمل كما يصوره البعض «دون قصد حينا ودون فهم أحيانا».. منفردا، نعم لم يكن طه حسين عازفا منفردا، ولكنه كان مايسترو عظيما تَنَقَّلَ من فرقة إلى أخرى حتى أصبح مايسترو لفرقة الشعب.

(٩)

وربما يقودنى هذا إلى المجال الثالث الذى قدم فيه طه حسين عصارة خبرته إلى مجتمعه، وهو مجال التجديد، وسأكتفى بأن أضرب مثلا واحدا يدل دلالة واسعة على طبيعة ما كان طه حسين ينجزه، فقد كان زميله الدكتور محمد صبرى السربونى يعمل وكيلا لدار الكتب فلما حل عليه الدور، ليكون مديرًا لهذه الدار، آثر الدكتور السنهورى، وهو وزير للمعارف، أن يعين غيره مديرا للدار، وفسر هذا الأمر بخلاف سياسى «أو علمى» سابق بين الرجلين السنهورى والسربونى، فلما أصبح طه حسين وزيرا للمعارف بعد فترة قصيرة آثر أن يعيد للسربونى حقه بطريقة ذكية تفيد المجتمع العلمى أيضا فأعلن عن إنشاء معهد للوثائق والمكتبات يكون تابعا لكلية الآداب فى جامعة القاهرة، وأعلن عن اختيار الدكتور السربونى مديرا لهذا المعهد، وبهذا تأسس فى آداب القاهرة قسم للمكتبات والمعلومات بدأ باسم معهد ثم أصبح قسما علميا عندما ألغيت المعاهد التابعة للكليات وحول بعضها إلى أقسام.

وهكذا كان طه حسين بمثابة مؤسس تخصص المكتبات والمعلومات فى آداب القاهرة على الرغم من أنه لم يكن أستاذا للمكتبات ولا للوثائق، وعلى الرغم من أن علم المعلومات لم يكن قد نشأ فى حياة طه حسين أو وزارته.

(١٠)

ويقودنى هذا إلى مجال رابع يتعلق بدور طه حسين فى المعهد المصرى للدراسات الإسلامية

فى مدريد، والتاريخ يدلنا على أن طه حسين لم يكن منشئ هذا المعهد، كما أبان عن هذا أستاذنا الدكتور الطاهر مكى بوضوح فى مقاله فى الهلال فى الصيف الماضى، وإنما كان الوزير المؤسس هو محمد حسن العشماوى باشا وزير المعارف فى وزارة حسين سرى، لكن مهارة طه حسين تجلت فى أنه، وبسرعة شديدة، وضع يده على السياسات الكفيلة بتفعيل دور هذا الكيان الذى وجد قبيل وصوله إلى الوزارة.

وكان طه حسين من الذكاء بحيث بعث مجموعة من أنبه الشبان الخريجين ليدرسوا من خلال هذا المعهد.

وهكذا فإنه توصل فى ١٩٥٠ إلى ما لم يتوصل إليه كثير من الوزراء والمسؤولين العرب بعد هذا بخمسين عاما حين تركوا معاهد من قبيل معهد العالم العربى فى باريس تعمل بمثابة واجهات عرض فقط.

(١١)

وفى مقابل هذا الأسلوب العقيم الذى نتبعه الآن، فإن طه حسين ركز فى إحيائه لدور المعهد المصرى فى مدريد على طلاب دراسات عليا واعدين، وقد أصبحوا كذلك بالفعل، بدلا من أن يركز على المديرين فقط، ويكفى أن نذكر أسماء طلاب أول بعثة مصرية إلى هذا المعهد لنذكر العلماء الأجلاء الأفاضل ذوى الأثر الباقى فى ثقافتنا، وفى مقدمتهم العالمان الجليلان الدكتور أحمد هيكل والدكتور محمود على مكى، ولنذكر معهما الفنان محمد صبرى..

وهكذا فإن الناقد الأدبى للأهرام الأستاذ سامح كريم كان معذورا، وهو يحاول أن يرد على ما قال به الدكتور الطاهر مكى، لأنه رأى نور المعهد ينبثق من دينامو «طه حسين» على حين أن الحقيقة تكمن فى جانب إحدى زوايا السياسة الدولية التى لم نضئها إضاءة كافية حتى اليوم..

ذلك أن الإسبان فيما بعد الحرب العالمية الثانية انتهجوا سياسة صديقة جدا للعرب، وقد كان للإسبان فضل كبير جدا فى تحرير الجزائر من ربقة الاستعمار الفرنسى بفضل إمدادات الأسلحة وبواخر إسبانيا وطريق إسبانيا.. حدث هذا بينما كانت فرنسا سادرة فى سياسة الفرنسة ومعاداة اللغة العربية فى الجزائر.

وقد فشل طه حسين بكل علاقاته بفرنسا أن يجد قدما لمثل هذا المعهد فى الجزائر التى هى أرض عربية.. لكنه، بفضل سياسات دولية معقدة، لم يكن عاجزا عن فهمها، وجد أرضا صلبة ومبنى قائما عليها فى مدريد.. وهناك أوصل طه حسين التيار الكهربائى «الطحسنى».

(١٢)

هل استغرب القارئ الكلمة الأخيرة.. ربما كان له الحق فى الاندهاش من هذه الكلمة.. لكن الذى اخترع هذه الكلمة بطريقة النحت كان لحسن الحظ هو الإمام الكبير الشيخ محمد متولى الشعراوى، وقد نحت هذه الكلمة فى منتصف القرن العشرين وأدخلها ضمن أحد أبيات قصيدة ألقاها فى مدح طه حسين، وفى مدح سياساته «الطحسنية»... فعل الشيخ الشعراوى هذا عن اقتناع فكرى وفهم سياسى مبكر ووعى وطنى تميز به الداعية العظيم، على الرغم من أنه لم يكن تلميذا لطه حسين ولا مرؤوسا له، فقد درس الشيخ الشعراوى فى الأزهر ثم عمل به، وكان فى الحالين بعيدا عن طه حسين ونفوذه، لكن حب الوطن يجعل صاحبه يحب مَنْ يحبون الوطن.. وهكذا أحب الشيخ الشعراوى طه حسين ومجّده مبكرا حين كانت سهام طائشة تنهال على طه حسين من كل حدب وصوب، لكن الشعراوى ببصيرة نافذة قال يخاطبه:

لك فى العلم مبدأ طحْسَنى

سار فى العالمين مسرى ذكاء

جعل العلم للرعية جمعاء

فشاع كالماء بل والهواء

■ ■ ■

الفصل الثامن

د. إبراهيم بيومى مدكور

١٩٠٢ - ١٩٩٥

(١)

كان الدكتور إبراهيم بيومى مدكور طيلة حياته نموذجًا فذًا للذاكرة القومية الممتازة التى شاركت فى حفظ تراث الأمة يومًا بعد يوم، وفى الإضافة إلى هذا التراث. كان شخصية رائدة فى محيط العمل الثقافى طيلة فترة طويلة، وفيما بين زملائه من رواد تعليم الفلسفة فى مصر المعاصرة تميز باهتمامه بمجالين مهمين لم يشاركه غيره الاهتمام بهما بالقدر المتفوق الذى حققه هو، فقد اهتم باللغة الفلسفية، وبدور المفكر فى الإدارة العامة والحكومية.

وكان اهتمامه باللغة الفلسفية نتيجة شبه حتمية لدراسته فى دار العلوم، وما قبل دراسته فى دار العلوم (فى الأزهر والقضاء الشرعى) ثم لدراسته الفلسفة والقانون والأدب فى فرنسا منذ البداية، وقد كان تكوين إبراهيم مدكور الفلسفى أكثر التكوينات الفلسفية قدرة على الإحساس الدقيق بالمترادفات فى اللغة وما تمثله وتعبر عنه من مدلولات فلسفية، كما كان أقدر الناس على تمييز اللفظ المنتقى للمعنى المراد التعبير عنه، وقد انشغل بحكم قدرته على الهدوء ثم على التفكير الهادئ بدراسة الفروق الدقيقة جدًا بين المترادفات الشائعة جدًا، ولكنه لم يقدم هذه الفروق فى دراسات لغوية أو فلسفية، وإنما ادخرها بحكم مكانته الكبيرة لكى تظهر فى عباراته القليلة التى كونت مقالاته القليلة وكتبه الأكثر قلة وندرة.

(٢)

ولد الدكتور إبراهيم مدكور فى أبى النمرس بمركز الجيزة، وهى قرية تعتبر من ضواحى القاهرة الكبرى، وحفظ القرآن الكريم، وتلقى التعليم الأولى، ثم التحق بالأزهر، فمدرسة

القضاء الشرعى، واشترك فى الحركة الوطنية إبان شبابه، واعتقل وسجن بين من سجنوا من شباب الطلبة فى ثورة سنة ١٩١٩، واجتاز القسم الأول لمدرسة القضاء الشرعى قبل أن تُنهى وينهى هو أيضًا الدراسة بها، ثم التحق بدار العلوم حيث حصل على دبلومها وتخرج سنة ١٩٢٧ فى الدفعة التى كان هو ثانيها وكان أولها هو الإمام الشهيد الشيخ حسن البنا وقد ضمت الدفعة معهما كلًّا من أستاذى الشريعة الشيخين محمد أبو زهرة، وعلى حسب الله، واشتغل بالتدريس سنةً فى إحدى مدارس القاهرة الابتدائية، اختير بعدها لبعثة حكومية إلى إنجلترا، ولكن التقلبات السياسية وقفت فى طريقه فسلبته حقه، ونقل إلى إدفو بدلًا من الذهاب إلى لندن.

(٣)

ولما كان الدكتور مدكور قد خطط لحياته على أساس الابتعاث إلى أوروبا، فقد استقال من وظيفته، وسافر إلى فرنسا على نفقته فى أوائل سنة ١٩٢٩، ولم يكد يَمضى عام حتى رد إليه حقه، وضم إلى البعثة مرة أخرى.

وفى باريس درس الفلسفة والقانون، ومناهج البحث العلمى، وبعض اللغات القديمة الحديثة، وقد وفق فى دراساته العليا توفيقا كبيرا، وفى سنة ١٩٣١ حصل على ليسانس الآداب من جامعة السوربون، وفى سنة ١٩٣٣ حصل على ليسانس الحقوق من جامعة باريس، وفى نهاية سنة ١٩٣٤ نال دكتوراه الدولة فى الفلسفة برسالتين، إحداهما عن «منطق أرسطو فى العالم الإسلامى»، والأخرى عن «منزلة الفارابى فى الفلسفة الإسلامية».

(٤)

وفى مارس سنة ١٩٣٥ عاد الدكتور مدكور إلى مصر وانضم إلى هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وانتدب للتدريس فى بعض الكليات الأزهرية الجديدة، وفى العام التالى اختير عضوا بمجلس الشيوخ وقد اضطر للاستقالة من الجامعة نزولًا على مبدإ عدم الجمع بين الوظيفة وعضوية مجلس الشيوخ، وقد ظل عضوا فى مجلس الشيوخ ١٥ عاما، وكان له فى مجلس الشيوخ نشاط ملحوظ، واشترك فى لجنتى المالية والأوقاف والمعاهد الدينية، وهو الذى تبنى استجواب «الأسلحة الفاسدة» الذى جاء إرهاصًا لثورة سنة ١٩٥٢.

وكان هو نفسه قد اضطر مبكرا لأن يستقيل من الوفد أكبر الأحزاب السياسية، وآثر الاستقلال على الحزبية.

ومن خلال عضويته فى مجالس إدارة الشركات اتصل اتصالًا عمليًا بالحياة الاقتصادية والاجتماعية.

(٥)

اختير الدكتور مدكور لعضوية مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٦ بين عشرة من المعينين اكتمل بهم عدد أعضاء المجمع ٤٠ عضوًا، واستقبلهم المرحوم الدكتور أحمد أمين، وكان الدكتور مدكور هو المتحدث باسمهم، واشترك الدكتور مدكور فى عدد من لجان المجمع منها لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية، ولجنة المعجم الكبير التى اختصها بنصيب وافر من علمه ووقته، واختير عضوًا فى مكتب المجمع، ثم كاتب سره فى سنة ١٩٥٩ خلفا للأستاذ منصور فهمى، ثم أمينًا عامًا له فى سنة ١٩٦١، ورئيسًا له فى سنة ١٩٧٤ خلفا للدكتور طه حسين.

وقد حقق الدكتور إبراهيم بيومى مدكور الرقم القياسى فى البقاء فى عضوية مجمع اللغة العربية، فقد قضى فيه تسعة وأربعين عامًا (١٩٤٦ ـ ١٩٩٥)، ولم يكن غريبًا أن تمتد رئاسته لهذا المجمع إلى اثنين وعشرين عامًا (١٩٧٣ـ١٩٩٥)، وليحطم فى الحالين الرقمين القياسيين لسلفيه أستاذ الجيل لطفى السيد، وعميد الأدب العربى طه حسين، ومن غرائب الأقدار أن العمر قد امتد به إلى ما يفوق عمر أستاذ الجيل وأستاذه على وجه الخصوص أحمد لطفى السيد.

(٦)

وكان لنشاط الدكتور مدكور الإدارى المميز أثر فى ارتقاء النشاط العلمى للمجمع، ومنذ أن اختير أمينًا عامًا للمجمع وحتى اختياره رئيسًا له كان يلقى كلمة عن نشاط المجمع فى افتتاح المؤتمر يبين فيها النشاط الذى أنجزه المجمع فى خلال المدة ما بين المؤتمرين، وهى كلمات كاشفة عن النشاط وملخصة له ومعرفة به .

وقد شهد المجمع فى عهده ازدهارًا فى إنتاجه، ومطبوعاته، وعلاقاته الدولية، فأخرج المعجم الوسيط فى ٣ طبعات، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم، ومجموعات المصطلحات التى تعد ذخيرة كبيرة فى سبيل تعريب التعليم الجامعى فى شتى الميادين والفنون.

(٧)

ظل الدكتور مدكور كالبوصلة الهادئة للحياة الثقافية من خلال مواقعه العديدة : أمينا ثم رئيسًا لمجمع اللغة العربية، ومسؤولا عن كثير من اللجان والمهام فى المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ثم فى المجلس الأعلى للثقافة، وفى المجالس القومية المتخصصة، وفى كثير من المواقع العلمية والقومية الهادئة، والمنظمات العربية والإقليمية المعنية بالتربية والثقافة والعلوم، ومن خلال هذه المواقع أشرف على إخراج كثير من المعجمات المتخصصة، والموسوعات العظيمة، ومجموعات المصطلحات والدراسات المستفيضة.

(٨)

ونعود إلى اشتغاله بالحياة العامة، وقد كان لنشاطه فى هذا المجال طابع متميز، وعلى الرغم من اهتماماته السياسية وانتماءاته الحزبية الواضحة فقد كان إبراهيم مدكور دون غيره من السياسيين القدامى جميعًا ـ باستثناء زميله وصديقه مريت غالى ـ معنيًا بالممارسات السياسية على المستوى الدقيق «MICRO» لا على المستوى الضخم الظاهر «MACRO».

ومن العجيب أن هذين الرجلين وزميلهما محمود محمد محمود رئيس ديوان المحاسبة الأشهر قد انفردوا بتولى الوزارة لأقصر فترة فى تاريخ مصر الحديث فقد عمل مدكور وزيرًا للإنشاء والتعمير ليوم واحد فقط هو آخر أيام وزارة على ماهر الأخيرة أولى وزارات الثورة، وعمل محمود محمد محمود وزيرًا للمواصلات ليوم واحد فقط هو نفس اليوم، وإن كان مريت قد تولاها ليوم آخر هو آخر أيام عهد الملكية.

وقد أفاد عصر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ المبكر من إبراهيم بيومى مدكور فى الموقع الأكثر تناسبًا مع هدوء العالم الفيلسوف المصلح، حيث تولى مسؤوليات كبيرة جدًّا فى مجلسى الإنتاج والخدمات، وهما المجلسان اللذان صاغا كثيرًا من إنجازات الثورة الأولى فى شتى الميادين، وفيما بعد ذلك تنامت مسؤولياته فى مجمع اللغة العربية، والمجلس الأعلى للفنون والآداب وغيرهما من مؤسسات الفكر، وكان قادرا على ضبط العلاقة بين هذه المؤسسات الفكرية والمؤسسات التنفيذية فى عهد الثورة.

(٩)

كان الدكتور مدكور فى نظر تلاميذه ومعاصريه نموذجا بارزا للإقلال من التأليف مع كل القدرة عليه، كما كان من قبل نموذجًا قديرًا للبعد عن الأضواء رغم قربها منه وإحاطتها به، وقد أشرف على إخراج أعمال علمية قيمة منها «قاموس العلوم الاجتماعية»، وكتاب الشفاء لابن سينا، وكتاب المغنى للقاضى عبد الجبار، والفتوحات المكية لمحيى الدين بن عربى، و«الموسوعة العربية الميسرة» التى أخرجتها الجامعة العربية بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين.

أما أشهر كتبه: «فى الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيق»، و«فى الفكر الإسلامى».

وقد أصدر كتابين عن المجمع:

- «مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عامًا، ماضيه وحاضره». وهو كتاب يؤرخ للمجمع من الناحية العلمية والفنية، وتطوره القانونى منذ نشأته.
- «مع الخالدين» يتضمن كلماته التى ألقاها فى استقبال وتأبين عدد من الأعضاء المجمعيين.

وكانت للدكتور مدكور بحوث متلاحقة فى دورات المجمع المختلفة، منها:

- نشأة المصطلحات الفلسفية فى الإسلام.
- منطق أرسطو والنحو العربى.
- مدى حق العلماء فى التصرف فى اللغة.
- لغة العلم.

(١٠)

اشترك الدكتور مدكور فى عدة مؤتمرات علمية وفلسفية ذات قيمة كبيرة، وساهم مساهمة كبيرة فى إحياء الذكرى الألفية لابن سينا فى بغداد سنة ١٩٥١، وطهران وباريس سنة ١٩٥٤، وساهم فى مهرجان الغزالى بدمشق سنة ١٩٦٢، وابن خلدون بالقاهرة سنة ١٩٦٣، واشترك كذلك فى إحياء ذكرى طه حسين بالقاهرة سنة ١٩٧٩، وحافظ وشوقى بالقاهرة سنة ١٩٨٢، وطه حسين بمدريد سنة ١٩٨٣، ولويس ماسينيون بالقاهرة سنة ١٩٨٣، ودعى إلى المحاضرة فى معاهد مختلفة، من بينها السوربون.

(١١)

قدم الدكتور شكرى عياد أعذب تصوير متاح لشخصية الأستاذ فى إبراهيم مدكور فى كتابه «العيش على الحافة»:

«... لهذا الرجل قدرة نادرة على جعل الفلسفة قريبة من فكر أى إنسان، بل شيئًا ضروريًّا كالماء والهواء، لكنه ضن بوقته على الكتابة، وبعثر عمره الطويل فى المناصب، أما حين كان يدرسنا «مشكلات الفلسفة» فى السنة الأولى فى كلية الآداب فكان قد رجع حديثًا من فرنسا بعد أن حصل على دكتوراه الدولة برسالتين، إحداهما عن «منطق أرسطو فى العالم الإسلامى»، والأخرى عن «منزلة الفارابى فى الفلسفة الإسلامية»، وكانت أول مشكلة درسها لنا هى مشكلة «الحياة»، ولا أظنه تجاوزها، لكنها كانت مدخلًا جميلًا لتعريفنا بالفلسفتين المادية والمثالية، وهما كل الفلسفة.

«وكان إبراهيم مدكور محاضرًا يملك آذان سامعيه قبل عقولهم، ذا صوت واضح رنان، يعرف كيف ينغمه دون تكلف، فيلوّن الطبقات، ويؤكد ما يريد تأكيده من الجمل، وقد درس لنا الفلسفة الإسلامية أيضًا حين انتقلنا إلى السنة الثالثة، وكانت محاضرته تجمع طلاب قسم اللغة العربية وقسم الفلسفة».

(١٢)

وتحدث شكرى عياد حديثًا طريفًا عن أستاذه مدكور وما عُرف عنه من تكرار لبعض محاضراته:

«... ولا أدرى هل أؤكد إعجابى به حين أقول إنه كان يكرر المحاضرة أحيانًا فى المحاضرة التى تليها، ليفهم مَنْ لم يفهم أولًا، وربما أيضًا لأن فى التكرار ضربًا من التفنن (كما تكرر أم كلثوم فى أغانيها)، أم أطاوع سوء ظنى فأقول: إنه يشغل بأمور السياسة والحياة الاجتماعية فينسى أو يؤجل إعداد المحاضرة التالية! أى الأمرين كان فإنى لم أره قط ينظر فى ورقة».

(١٣)

نال الدكتور مدكور كثيرا من التكريم والتقدير اللائق به، وكان على الدوام فى صدارة المجتمعات الأدبية والثقافية، وقد منحته جامعة برنستون الدكتوراه الفخرية سنة ١٩٦٤، وقد نال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية (١٩٧٠).

الفصل التاسع

د. شوقى ضيف

١٩١٠ - ٢٠٠٥

(١)

عهد إلىَّ مجمع اللغة العربية بكتابة مبررات ترشيح الدكتور شوقى ضيف لجائزة نوبل فى الآداب ٢٠٠٤ فكتبتها على النحو التالى الذى أقره مجلس المجمع:

أولًا: يشع إنتاج الدكتور شوقى ضيف بقدرات إبداعية رفيعة المستوى إنسانية الآفاق مثالية الطابع يحفل نسيجها بمؤثرات الشرق الفنان بروحانياته وميتافزيقياته، ويتطرز بزخرفات هندسية تستوحى تراث فنون حضارة لم تتوقف عن تقبل الحضارات الأخرى.

ثانيًا: أبدع فى كتابة سيرة ذاتية متميزة حرصت على مساحات مطلقة من التواضع والانتماء والالتزام، وتمكن من خلال هذا الحرص من سبر أغوار النفس البشرية وإضاءة جوانبها القادرة الطموحة.

ثالثًا: فى كتاباته النقدية التى ظللت معظم فنون الأدب على مدى أكثر من ألف عام انحاز للإبداع وفنيته ورفع من قدر الإبداع على الأيديولوجيات والتأطير السياسى والاجتماعى.

رابعًا: تمكن من خلال الانحياز المخلص للإبداع من أن يقدم رؤى متميزة لم يسبق إليها على الرغم من كثرة من سبقوه إلى الدراسة العلمية لأدب إنسانى عريق ومتصل لتراث هو أدب أقدم اللغات الحية.

خامسًا: ضرب بدراساته فى تاريخ الأدب والنقد نموذجا آخر لقدرة الإبداع على التمكن من الدراسات الأدبية والإضافة إليها، بل تغيير وجوهها .

سادسًا: كان له الأثر الأكبر من خلال أستاذيته ودراساته فى توجيه حركة الإبداع فى وطنه نحو استكناه الذات وإجادة التعبير عنها فى الأشكال الأدبية المتطورة مما خلق تيارًا قويًا من الوعى الإبداعى بقضايا أمته وعلاقاتها بالإنسانية، وهو تيار مارسه تلاميذه من المبدعين من أجيال متعاقبة على مدى سبعين عاما.

سابعًا: تمكن بدراساته للأدب العربى فى جميع مراحله من تقديم قطاع ضخم من الإنتاج الفكرى للجنس البشرى، وباعتباره قمة بين الدارسين لهذا الأدب على هذا المستوى الأكاديمى فإنه أسهم بالجهد الوافر فى تأهيل دراسة هذا الأدب والأدب نفسه لتندمج فى نسيج الدراسات العلمية الحديثة للآداب العالمية مستخدما فى كتاباته اللغة والمنهج والمفردات التى عالجت الحضارة المعاصرة من خلالها آداب الحضارات السابقة.

وقد بذل شوقى ضيف جهودا جبارة فى تحقيق وتدقيق وكتابة تاريخ الأدب العربى فى جميع عصوره على نحو تفوق فيه على معاصريه وأسلافه، وصارت مجموعة مؤلفاته بمثابة المرجع المفضل لقراءة تاريخ الآداب العربية عبر العصور.

ثامنًا: قدم دراسته عن عالمية الإسلام كاشفًا عن الجوانب المشتركة بين التراث الدينى لأمته والتراث العالمى ومقدمًا بإحساس المبدع والناقد والفنان أسسًا كفيلة بتنمية الفهم العميق للإسلام عند الآخرين، مبتعدا عن روح الخطابة والتحيز والشوفونية التى قد يفرضها الانتماء بطريقة لا واعية، ومقتربًا بل مطبقًا لمبادئ التفكير العلمى التجريبى الذى قامت عليه حركة التمدن الإنسانية المعاصرة، واضعًا بهذا اللبنات الأولى فى الأساس النظرى الكفيل باندماج المجتمع الإسلامى الذى ينتمى إليه فى نظام عالمى جديد يتكفل باحترام الآخر، وباحترام المقدسات والتاريخ والتراث فى الوقت ذاته.

(٢)

يحتل اسم الدكتور شوقى ضيف مكانة سامقة بين العلماء فى تخصصه، ومكانة سامقة وفريدة بين مؤلفى تاريخ الآداب العربية حيث تنوعت مؤلفاته لتغطى الفترات المتتالية والمتواصلة فى تاريخ ذلك الأدب.

ولا شك فى أن الدكتور شوقى ضيف هو عميد الجيل الثانى من أساتذة الأدب العربى فى الجامعات المصرية، وإليه يرجع الفضل الأكبر فى وضع المادة الخصبة للدراسات الأكاديمية فى ميدان تاريخ الأدب العربى بفضل عكوفه المخلص على واجبه الجامعى الأصيل طيلة حياته، وقد اتضحت فى منهجه ومنهج تلاميذه عناصر قومية وعلمية متعددة من مقومات الأصالة الفكرية العربية: احترام التراث، واستيعاب الأصول، بالإضافة إلى الوعى باتجاهات الثقافة والفكر المعاصرين.

(٣)

كان والده شيخًا جليلًا تمنى لابنه ما حققه الابن بالفعل وزاد عليه، وقد آثر الأب الفاضل أن يسمى ابنه باسم أمير الشعراء أحمد شوقى، وإذا بالسنوات تمضى ويحتل الدكتور شوقى ضيف فى الدراسات العربية الأكاديمية قيمة توازى قيمة شوقى فى الشعر العربى، كما يشتهر الدكتور شوقى ضيف باسم شوقى (وهو الاسم المختصر لأمير الشعراء) وإن ظل محتفظا أيضا بالاسم الأصلى وهو أحمد شوقى عبد السلام ضيف.

(٤)

ولد الدكتور شوقى ضيف فى دمياط، ودرس فى الكتاب ثم فى الأزهر، وتميز بتكوين علمى فريد لم يتح لغيره، وكأنما اختصه الله به ليكون ما قد أصبح بالفعل، فقد بدأ دراسته فى الأزهر، ثم تحول وهو فى المرحلة الثانوية إلى تجهيزية دار العلوم ليتهيأ للالتحاق بتلك الكلية، ثم التحق بكلية الآداب الناشئة فى جامعة القاهرة عندما أتم دراسته فى التجهيزية (١٩٣٠)، إذ كان من توفيق الله له أن سمحت الجامعة فى ذلك العام بقبول الناجحين فى تجهيزية دار العلوم فى كلية الآداب، ثم بعد أن تخرج فى كلية الآداب (١٩٣٥)، وقع عليه الاختيار ليعمل محررًا فى مجمع اللغة العربية عند نشأته، وذلك بتوصية من أستاذه أحمد الإسكندرى أحد الأعضاء المؤسسين لمجمع اللغة العربية.

وحين أخذت كلية الآداب لأول مرة بمبدإ تعيين المعيدين اختير شوقى ضيف مع زميلته الدكتورة سهير القلماوى (أكتوبر ١٩٣٦) ليكونا أول مَنْ عُيِّنَا كمعيدين فى هذا القسم.

(٥)

نال شوقى ضيف الماجستير (١٩٣٩)، ثم حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى (١٩٤٣)، وتدرج فى وظائف هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة القاهرة مدرسا فأستاذا مساعدا، فأستاذا لكرسى الأدب العربى (١٩٥٦) بعد عشرين عامًا من بداية عمله الجامعى معيدًا، ثم أصبح رئيسا لقسم اللغة العربية.

وقد عمل بجامعة الكويت لمدة غير قصيرة، ودعته جامعات أخرى فى مختلف البلاد العربية ليكون أستاذا زائرا بها.

ظل الدكتور شوقى ضيف صاحب نشاط علمى كبير شغله عن تولى المناصب الإدارية، وكان هذا من حسن حظه، فقد خصص حياته للتأليف والعلم، وتشهد المكتبة العربية بوفرة إنتاجه، وتنوعه، وتأثيره فى حركة الثقافة، وبالإضافة إلى البحوث والمقالات التى تزخر بها الدوريات فإن مؤلفاته فاقت مؤلفات معاصريه، ما بين محقق ومؤلف فى التاريخ الأدبى والدراسات الأدبية، وكانت تآليفه هى التى أسهمت فى تتويجه عميدا لدراسات الأدب العربى اعترافا بما قدمته هذه التآليف من إنتاج فكرى وأدبى ضخم فى تاريخ الأدب والدراسات الأدبية وتحقيق النصوص وتبسيط النحو وتفسير القرآن.

(٦)

لم يقف إنجاز شوقى ضيف عند الحدود القصوى للأستاذية ولكنه فى كل دراساته وتآليفه تميز بالقدرة على صياغة أحكام صائبة ودقيقة وغير مسبوقة، ويكفى على سبيل المثال أن نشير إلى نظريته المبكرة فى أن الشعر الأموى قد عرف التجديد والتطور وحفل بهما، وهى النظرية التى أثبتها فى كتاب كامل واختلف بها مع كل مَنْ سبقوه ممن رأوا فى العصر الأموى امتدادًا لعصر صدر الإسلام فحسب.

وعلى نمط هذا النموذج مضت بحوث ودراسات وتآليف وتحقيقات الدكتور شوقى ضيف جامعة بين شجاعة فائقة، وصياغة هادئة، وفكر أصيل، ونفس طويل.

(٧)

ويمكن تلخيص الحديث عن مؤلفاته العديدة بتقسيمها إلى مجموعات، ولعل أبرز هذه المجموعات أجزاء موسوعته التى أرخ فيها للأدب العربى على مر العصور والتى أصدرها على هيئة كتب متعاقبة، وأتيح لها أن تكتمل طباعة وإخراجًا وإعادة طبع فى حياته، وقد خصص الجزء الأول (من موسوعته هذه ذات الأجزاء العشرة) للعصر الجاهلى، وقد طبع هذا الكتاب ٢٢ طبعة فى حياته، والجزء الثانى للعصر الإسلامى (١٩ طبعة)، والجزء الثالث للعصر العباسى الأول (١٥ طبعة)، والجزء الرابع للعصر العباسى الثانى (١٠ طبعات)، والجزء الخامس لعصر الدول والإمارات فى الجزيرة العربية والعراق وإيران (٣ طبعات)، والجزء السادس لعصر الدول والإمارات فى الشام (٣ طبعات)، والجزء السابع لعصر الدول والإمارات فى مصر (٣ طبعات)، والجزء الثامن لعصر الدول والإمارات فى الأندلس (٤ طبعات)، والجزء التاسع للأدب العربى فى عصر الدول والإمارات فى ليبيا وتونس وصقلية، والجزء العاشر للأدب العربى فى عصر الدول والإمارات فى الجزائر والمغرب وموريتانيا والسودان.

(٨)

كذلك فقد نشر الدكتور شوقى ضيف ثمانية كتب أخرى فى المجالات الرحبة للدراسات الأدبية الأكاديمية، فقد نشر رسالته للدكتوراه فى كتاب بعنوان «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»، ثم نشر كتابا آخر بعنوان «الفن ومذاهبه فى النثر العربى».

وتناول بقدر من التركيز والتحليل والدرس المتأنى بعض القضايا المهمة فى عصور الأدب العربى المتوالية فوضع كتابا عن «الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية»، ووضع كتابا آخر عن «التطور والتجديد فى الشعر الأموى»، ووضع كتابا ثالثا عن «الشعر وطوابعه الشعبية على مدى العصور»، ووضع كتابا رابعا عن «البطولة فى الشعر العربى»،ووضع كتابا خامسا عن «الفكاهة وعن الشعر الفكاهي فى مصر»، وسادسًا عن «الحب العذرى عند العرب».

(٩)

وبالإضافة إلى هذا فإن للدكتور شوقى ضيف أربعة كتب مرجعية تناولت الموضوعات الكبرى فى دراسة الأدب والنقد على مر العصور، وهى: «فى النقد الأدبى»، و«البلاغة: تطور وتاريخ»، «فصول فى الشعر ونقده»، «البحث الأدبى: طبيعته، مناهجه، أصوله، مصادره».

وكذلك فقد تناول الدكتور شوقى ضيف بعض الفنون الأدبية التى لم تحظ بدراسات كثيرة بدرس مستفيض فأصدر كتبه الرائدة فى هذا المجال: «المقامة» و«الترجمة الشخصية» و«الرحلات» و«الرثاء» و«النقد».

(١٠)

لم ينفصل الدكتور شوقى ضيف عن الحياة الأدبية فى عصرنا الحديث، وإنما أفاض عليها من اهتمامه الحثيث وبحثه الهادئ المستفيض فأخرج فى هذا المجال ستة كتب مهمة يأتى فى مقدمتها كتاباه المرجعيان «دراسات فى الشعر العربى المعاصر» و«الأدب العربى المعاصر فى مصر»، كما عنى بتاريخ مجمع اللغة العربية فى كتاب «مجمع اللغة العربية فى خمسين عاما».

كذلك فقد اختص الدكتور شوقى ضيف ثلاثة من أعلام الأدب العربى الحديث والمعاصر بدراسات قيمة ظلت وستظل على الدوام نموذجا للدرس الأدبى المتميز، وقد كتب كتابا شيقا عن أمير الشعراء أحمد شوقى مطلقا عليه لقب «شاعر العصر الحديث»، وعن محمود سامى البارودى مطلقا عليه لقب «رائد الشعر الحديث»، وعن عباس محمود العقاد وقد اختار لكتابه عنه عنوان: «مع العقاد»، وأضاف إلى هذا العنوان عنوانا فرعيا: «عرض لسيرته وكتابته ونقده وشعره».

(١١)

أما من أدباء العصور السابقة فقد اختص الدكتور شوقى ضيف الشاعر الأندلسى ابن زيدون بدراسة قيمة صدرت فى كتابه الذى حمل اسم هذا الشاعر.

(١٢)

وفى مجال القرآنيات نشر الدكتور شوقى ضيف تفسيره للقرآن الكريم بعنوان «الوجيز فى تفسير القرآن الكريم»، وكان قد نشر قبل هذا كتابه «سورة الرحمن وسور قصار».

وفى مجال الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية نشر الدكتور شوقى ضيف: «محمد خاتم المرسلين»، «عالمية الإسلام»، «الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة» و«القسم فى القرآن الكريم».

(١٣)

وعنى الدكتور شوقى ضيف بالدراسات النحوية عناية فائقة فأصدر أربعة من الكتب الحافلة بالآراء السديدة والفكر المبدع «المدارس النحوية» و«تجديد النحو»، «تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا مع منهج تجديده»، «تيسيرات لغوية».

وفى مجال الثقافة العامة نشر الدكتور شوقى ضيف: «فى التراث والشعر واللغة»، «من المشرق والمغرب»، «محاضرات مجمعية»، «فى الأدب والنقد».

وكتب الدكتور شوقى ضيف سيرة حياته المبكرة فى جزأين وصل فى الجزء الأول إلى حصوله على الدكتوراه، وخصص الجزء الثانى لحياته بعد حصوله على هذه الدرجة.

(١٤)

وبالإضافة إلى هذه التآليف العظيمة فقد حقق الدكتور شوقى ضيف عددا من الكتب المهمة، فحقق:

- «السبعة فى القراءات» لابن مجاهد.
- «النشر فى القراءات العشر».
- وكتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبى.
- «خريدة العصر» للعماد الأصبهانى.
- «المغرب فى حلى المغرب» لابن سعيد.

• «الدرر فى اختصار المغازى والسير».

• «نقط العروس فى تواريخ الخلفاء» لابن حزم.

• «رسائل الصاحب بن عباد».

(١٥)

انتخب الدكتور شوقى ضيف عضوا فى مجمع اللغة العربية (١٩٧٦)، ثم انتخب أمينًا عاما للمجمع (١٩٨٨)، ونائبًا لرئيسه (١٩٩٢)، ورئيسًا له (١٩٩٦)، كما اختير عضوا فى مجمع اللغة العربية بالأردن (١٩٧٨)، ومنذ أن انتخب عضوا بالمجمع لم يخل مؤتمر من بحوثه ومقالاته، وقد شارك مشاركة فعالة فى أعمال لجان عديدة، وأسهم ببحوث رائدة فى تسويغ بعض التعبيرات العصرية وتأصيل بعض الظواهر اللغوية، كما ألقى كلمات تذكارية فى استقبال وتأبين بعض الشخصيات المجمعية، وقد شارك مشاركة فعالة فى أعمال لجنة المعجم الكبير، ولجنة الأصول، ولجنة الألفاظ والأساليب، ولجنة الأدب، كما أسهم فى لجنة الجيولوجيا، وقدم إلى لجنة الأصول مشروعا لتيسير تعليم النحو للناشئة فأقرته اللجنة، وتم عرضه على مجلس المجمع ومؤتمره اللذين وافقا على معظم بنوده.

(١٦)

وله فى أعداد مجلة مجمع اللغة العربية عدة مقالات وبحوث وكلمات: «كلمته فى حفل استقباله»، و«الفصحى المعاصرة»، و«تيسير النحو»، و«لغة المسرح بين الفصحى والعامية»، و«توحيد المصطلح العلمى فى التعريب».

ومن بحوثه اللغوية التى قدمها (أو ألقاها) فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة:

• الفصحى المعاصرة.

• تيسير النحو.

• لغة المسرح بين الفصحى والعامية.

- توحيد المصطلح العلمى فى التعريب.
- الشعر الحر بين التراث الشعرى والحداثة.
- استكمال عبد الرحمن الأوسط لأسس الحضارة الأندلسية.
- بين الفصحى والعامية.
- منهج طه حسين فى الدراسات الأدبية.
- قصة حى بن يقظان لابن طفيل وأصولها الإسلامية.
- عقيدة الموحدين بين التشيع والاعتزال.
- اشتقاق الأفعال من أسماء الأعيان العربية والمعربة.
- بين الفصحى والعامية المصرية.
- عالمية الإسلام.
- ازدهار الفصحى فى القرن العشرين.
- العامية فصحى محرفة.
- العامية فصحى محرفة، عود على بدء.
- تأثير الثقافة العربية فى الثقافة الغربية الحديثة.
- تذكارية طه حسين.
- المعجمات العامة والخاصة.

(١٧)

وفى مجمع اللغة العربية ألقى الدكتور شوقى ضيف كلمات فى استقبال عشرة من الأعضاء المصريين هم:

- الدكتور محمد طه الحاجرى.

• الدكتور حسين مؤنس.

• الدكتور أمين على السيد.

• الأستاذ إبراهيم الترزى.

• الدكتور أحمد هيكل.

• الدكتور عبد القادر القط.

• الدكتورمحمود فهمى حجازى.

• الدكتور حسنين محمد ربيع.

• الدكتور صلاح فضل.

• الدكتور محمود فوزى المناوى.

(١٨)

وفى مجمع اللغة العربية ألقى الدكتور شوقى ضيف كلمات فى استقبال أحد عشر من الأعضاء العرب:

• الدكتور إبراهيم السامرائى.

• الأستاذ سعيد الأفغانى.

• الدكتور عبد الهادى التازى.

• الأستاذ على رجب المدنى.

• الأستاذ منير البعلبكى.

• الدكتور شاكر الفحام.

• الأستاذ أحمد شفيق الخطيب.

• الدكتور محمد إحسان النص.

- الدكتور محمد يوسف نجم.
- الدكتور محمد محمد بنشريفة.
- الدكتور يوسف عز الدين أحمد.

(١٩)

كما تولى تأبين ستة من أعضاء المجمع:

- الأستاذ على النجدى ناصف.
- الدكتور أحمد الحوفى.
- الدكتور محمد مهدى علام.
- الدكتور إبراهيم مدكور.
- الدكتور حسين مؤنس.
- الأستاذ محمود محمد شاكر.

(٢٠)

نال الدكتور شوقى ضيف كثيرًا من التكريم فى حياته الطويلة، وقد نال جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام (١٩٨٠)، وهو الثامن عشر بين مَنْ حصلوا عليها، كما نال جائزة مبارك (٢٠٠٣)، وقد نالها بعد نجيب محفوظ، وأنيس منصور، وعبد القادر القط، كما نال جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى (١٩٨٣)، وكان قد نال جائزة مجمع اللغة العربية مبكرا (١٩٤٥).

■ ■ ■

الفصل العاشر

د. محمود حافظ

شيخ العلماء المصريين

(١)

محمود حافظ هو العمود الفقرى لخيمة العلم المصرى المعاصر، ونحن ندرك قيمة العمود الفقرى لأى كيان وإن كنا لانحيط بالحدود التى تظللها خيمة العلم المصرى المعاصر على نحو ما يحيط هو بها، ومحمود حافظ هو الرمز السامق للعطاء فى مصر المعاصرة، أنعم الله به على بلاده ليكون نموذجا فذا يقتدى به، ومنارا عاليا يهتدى إليه طيلة حقبة الزمن الممتدة التى شهدت تأسيس المدرسة العلمية الوطنية الحديثة وظهورها ونموها وتفرعها وانتشارها وتكاثرها.

وقد ظل طوال هذه المراحل الست فى مكانة متقدمة جدا من ضمير أمته ووجدان علمائها، وقد أهله لهذه المكانة تصوفه العميق من أجلها، فلا نعرف جميعا بين أعلامنا مَنْ وهب حياته كلها مضاعفة ومكثفة ومركزة زمانا ومكانا للمدرسة العلمية الوطنية فى مجال تخصصه.

(٢)

ولاشك فى أن هناك عوامل كثيرة قد أعانته على هذه الصوفية النادرة، فقد وهبه الله نفسا راضية سامية، وعقلية ناقدة رائدة، كما أنعم عليه بالهيام بشخصه ممن عرفوه فى أربعة أجيال هى أجيال السابقين عليه والمعاصرين له واللاحقين به وتابعى اللاحقين، أقول هياما ولا أقول وجدا ولا حبا ولا احتراما فحسب، ذلك أن محمود حافظ هو الشخص النادر الذى حظى ولا يزال يحظى بالإجماع، وهو النادر أيضا فى أنه حظى بالإجماع على شخصه فى مجموعه من ناحية،

وعلى جميع ما فيه من ناحية أخرى، وكلنا يعرف إلى أى مدى نعتقد جميعا فى ألمعيته ونسلم له بالقيادة ونمضى وراءه ونحن مطمئنون إلى أننا سننال الصواب والحكمة والإنجاز .

(٣)

ومحمود حافظ هو بلا جدال رائد علم الحشرات فى مصر، توسم فيه أستاذاه على مشرفة وحسن شاكر أفلاطون الألمعية المبكرة فاجتبياه لهذه المهمة النبيلة، وقد كان عالمنا عند حسن الظن به بل ربما أتيح له أن ينجز ما لم يكن بخاطره أن ينجزه فى بداية حياته وفى عنفوان شبابه، وما لم يكن أستاذاه يتوقعانه منه، وقد ساعده على مضاعفة إنجازه أنه استعذب التصوف من أجل العلم واستلذ به فاذا بالتصوف يعطيه الفرصة من حيث لايدرى لتحقيق ذاته وليؤكدها وليفرض بصماتها على كل ركن فى حياتنا العلمية.

وقد قدر له أن يؤسس ويطور مدارس متعددة لعلم الحشرات لا فى كليته وحدها وإنما فى كل موقع علمى له علاقة من قريب أو من بعيد بعلم الحشرات، وإليه -على سبيل المثال- يرجع الفضل فى تأسيس قسم الحشرات فى المركز القومى للبحوث، وفى مؤسسة الطاقة الذرية، وفى المركز الإقليمى للنظائر المشعة، ومعهد بحوث الحشرات فى وزارة الصحة، فضلا على أقسام الحشرات فى كليات العلوم فى كل الجامعات المصرية وما يتصل بها من دراسات فى الكليات الجامعية الأخرى كالزراعة، والطب، والطب البيطرى.

(٤)

وليس هناك فى جامعاتنا المصرية كلها قسم يفوق قسم الحشرات فى جامعة القاهرة من حيث اكتمال أدواته المعمارية والبحثية والمتحفية.

وقد تسلم الدكتور محمود حافظ راية هذا القسم من أستاذه العظيم أفلاطون فأبدع فى صياغة مملكة هذا القسم بداية من المشاركة فى الرسم الهندسى له والإشراف على التنفيذ ثم فى استغلال المبنى على نحو رائع للعرض المتحفى العلمى الخالد على مدى الأعوام.

ومن الإنصاف أن نشير فى سرعة إلى عظمة واكتمال المجموعة المتحفية (التى يضمها هذا

القسم / المتحف) للحشرات فى بيئاتها المختلفة مع التأصيل والتوصيف العلمى الدقيق لكل من هذه المعروضات، كما أن صالات العرض التى يضمها تتفوق على كل صالات العرض الجامعية والعلمية والمتحفية فى أى معهد مماثل بل إنها تصل فى رحابتها وتنظيمها وقدرتها على أداء الغرض العلمى النبيل إلى مستوى قاعات اللوفر ومتحف التاريخ الطبيعى وذلك بفضل مثابرة دائبة وتميز علمى نادر فى توظيف الفنون والذوق من أجل العلم والتعليم.

(٥)

وبالإضافة إلى هذا الإنجاز الضخم فى تخصصه الدقيق فإن محمود حافظ علم فرد بين المهتمين بتاريخ العلم وفلسفته، وبين المسؤولين عن الإدارة العلمية والجامعية، وبين رواد البحث العلمى والنشر العلمى كذلك.

كما أنه القطب البارز فى الجهود التطوعية والأهلية وغير الحكومية فى العلم وفى غير العلم.

وهو علم خفاق فى العمل النقابى.

وهو صاحب الصوت المسموع فى المجالس القومية المتخصصة، والمجالس العلمية المتعاقبة.

وهو شيخ من الشيوخ الذين يعول على آرائهم ويعتمد على أفكارهم فى اللغة العلمية وفى المصطلحات وفى تنقيحها وتوحيدها.

(٦)

وقد كان أداء محمود حافظ فى كل هذه المجالات متميزا إلى حد معجز، فهو نموذج عبقرى لانصهار كل خلقين نادرين يبدوان متناقضين، فهو، على سبيل المثال، الأستاذ الدقيق والحنون فى الوقت نفسه، وقد ظل يأخذ تلاميذه بشدة يبطنها الحنو وهى خاصة ليس لها مثيل لأنها شدة موضوعية متسامية تحرص على أن تعود هؤلاء التجويد الرفيع فى الشكل والمضمون، وهو يحتضن تلاميذه إلى حد لا يدع فرصة لأى مؤثر خارجى أن ينفذ إليهم بعيدا عن العلم والبحث

العلمى، وهو يكاد يدفعهم دفعًا إلى الترهبن وكأن مكتبه ومدرسته ومعمله ومكتبته - بل بيته - تشكل مع بعضها دارًا للرهبنة لا يخرج منها الباحث الذى دخلها إلا وهو عالم قوى وباحث متميز فى الوقت نفسه.

وهو فى أستاذيته حريص كل الحرص على الشكل والمضمون فى الوقت ذاته، وحريص كل الحرص على تنمية مهارات تلاميذه وقدراتهم حتى فيما يبدو بعيدا عن مجال العلم.

(٧)

ويكفى على سبيل المثال أن نتأمل تعويده لهؤلاء التلاميذ على ألا يقدموا بروفات بحوثهم إلا مطبوعة وكأنها جاهزة للنشر، وكان يفعل هذا فى وقت مبكر جدا. كما يكفى على سبيل المثال فهمه لقيمة إتاحة الصورة والعلم على الجدران فى أعظم متحف حائطى على جدران قسم الحشرات، إضافة إلى المتحف الرائع الذى تحدثنا عنه لتونا والذى لا نظير له حتى إن قسم الحشرات ومكاتبه ومعامله يحيطون بالمتحف ومن حوله فى مبنى فريد متميز ينطق من داخله بعظمة هذا الرجل ودأبه وحبه لعلمه، وتفانيه فى البحث العلمى.

ومع أن محمود حافظ درس فى كمبردج فإنه فى عظمة أدائه العلمى يفوق كمبردج، ومدرسته العلمية هى أبرز نموذج لما يسمى فى المنتجات التكنولوجية بالعلامة الأصلية التى يستحيل تزييفها أو الانتساب إليها فى تسرع أو بمجرد الرغبة، ومع أنه كان يعنى عناية فائقة بمستوى تلاميذه، فإنه قد استطاع مع الدأب الجميل والعمر النبيل أن ينمو بمدرسته إلى حدود قصوى لم يتمكن أحد ممن سبقه إليها ولا إلى اللحاق به فى مستواها وفى عدد أبنائها.

(٨)

وقد ظل محمود حافظ منذ أكثر من ثلث قرن من الزمان بمثابة الملاذ الآمن الذى يلجأ إليه العلماء من أجل قيادته الحكيمة لحركتهم العلمية، وقد هدته الحكمة الإلهية الموهوبة من الله إلى أن يدرك الوسائل الذكية والطرائق الناجعة الكفيلة بالحفاظ للعلميين على مكانتهم وعلى حقوقهم فى مجتمع بدأ يلهث لهثا شديدا وراء المادة ووراء الإعلام الصاخب.

وقد تمكن بفضل شخصيته وتاريخه من أن يحفظ للعلماء والبحث العلمى فى العلوم مكانته السامقة فى الجامعة الأم والجامعات الأخرى، وفى أكاديمية البحث العلمى، وفى كل المؤسسات الأخرى المعنية بالعلوم.

(٩)

و محمود حافظ كاتب دقيق، رائع الألفاظ والمعانى، وهو يفعل هذا حتى فيما يظنه الآخرون روتينا، وأنت تقرأ له فتحس بأنك ترتقى بنفسك إلى آفاق صوفية من آفاق العلم العليا، وتستطيع أن تفهم مما يكتب أبعادا لم تفهمها من قبل فيما قرأت، بل فيما درست وظننت نفسك أستاذا فيه.

(١٠)

ومحمود حافظ بالإضافة إلى كل هذا خطيب رائع يأخذ بمجامع القلوب، هادئ الصوت، عميق النبرة، تحس وأنت تستمع إليه أنك تستمع إلى عالم جليل من علماء القرون الوسطى الذين جمعوا الحكمة والفلسفة مع العلم والأدب.

وهو قبل كل هذا رئيس رائع ملتزم بالموعد لا فى البدايات وحدها ولكن فى النهايات أيضا، وهو من هذه الناحية قادر على أن يجعل لكل اجتماع أو حفل يرأسه نهاية محددة بحيث ينتهى الاجتماع أو الحفل أو الإنجاز بالقدر الكامل من الوقار الذى بدأ به.

وهو من أجل هذا يتحمل الظروف القاسية والطارئة، ويعيد توظيف المعطيات ليخرج بأفضل النتائج دون أن يشعر أحد بالمعاناة التى بذلها من أجل تحقيق الإنجاز.

(١١)

ومحمود حافظ على الدوام أينما سار وأينما جلس محاط أو مصحوب بأفذاذ الرجال والسيدات من علمائنا، كما أنه مصون فى قلوبهم وعقولهم إلى حد لا يبارى فيه ولا يصل إليه غيره.

وهو بالنسبة إلىَّ مثل أعلى طيلة أكثر من أربعين عامًا حمانى الله بوجوده وبمعرفته وبعطفه وتوجيهه وتشجيعه من الإحباط واليأس والقنوط والغرور والكبر والشرود على حد سواء .

كتب للمؤلف

فى تاريخ الحياة العقلية والعلمية وتراجم العلماء، المفكرين:

- د. محمد كامل حسين عالما ومفكرا وأديبا،
  - ط١ هيئة الكتاب ١٩٧٨. - ط٢، هيئة الكتاب ٢٠٠٢.
- مشرفة بين الذرة والذروة، ط١، هيئة الكتاب، ١٩٨٠.
- سيرة حياة علىّ مصطفى مشرفة، ط٢، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.
- مشرفة: سيرة حياة، ط٣، دار الشروق، ٢٠١١.
- سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى، ط٢، هيئة الكتاب، ٢٠٠٣.
- أحمد زكى: حياته وفكره وأدبه، ط١، طبعة مبكره مختصرة، هيئة الكتاب، سلسلة أعلام العرب ١٩٨٤.
- تكوين العقل العربى: مذكرات المفكرين والتربويين، دار الخيال ،٢٠٠٢.
- رؤساء المجامع اللغوية العربية، مكتبة الشروق الدولية،٢٠١٤.
- عاشق العلم: أحمد مستجير، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨.

فى تاريخ الطب المصرى الحديث وتراجم أعلامه:

- د. علىّ باشا إبراهيم ،هيئة الكتاب، سلسلة أعلام العرب ،١٩٨٥.
- د. نجيب محفوظ، هيئة الكتاب، سلسلة أعلام العرب ،١٩٨٦.
- د.سليمان باشا عزمى، هيئة الكتاب، سلسلة أعلام العرب ١٩٨٦.
- الحكيم الجراح: سيرة حياة د.محمد عبد اللطيف:
  - ط١ دار الخيال ٢٠٠٩. - ط٢ دار الخيال ٢٠٠٩.
- حوارات الدين والطب والسياسة، دار الكلمة ٢٠١٤.
- أقوى من السلطة: مذكرات أساتذة الطب، هيئة الكتاب، القاهرة ٢٠٠٤.

فى الفكر الاسلامى وتراجم أعلامه:

- محمد الخضر حسين وفقه السياسة فى الإسلام، دار الكلمة ٢٠١٤.
- الشيخ الظواهرى والإصلاح الأزهرى، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨.
- أصحاب المشيختين: مكتبة الشروق الدولية،٢٠١٠.
- الأزهر الشريف والإصلاح الإجتماعى والمجتمعي. دار الكلمة ٢٠١٤.

فى تاريخ الحقبة الليبرالية وتراجم أعلامها:

- زعيم الأمة: مصطفى النحاس باشا وبناء الدولة الليبرالية، دار الشروق ،٢٠١١.
- علىّ ماهر باشا ونهاية عصر الليبرالية، دار الشروق، ٢٠٠٩.
- عثمان محرم.. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية، مكتبة مدبولى، ٢٠٠٤.
- محمد محمود باشا وبناء دولة الأقلية، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤.
- إسماعيل صدقى باشا، هيئة الكتاب، ١٩٨٩.

• على مشارف الثورة: مذكرات وزراء نهاية عهد الملكية، دار الخيال ٢٠٠١.
• فى كواليس الملكية: مذكرات رجال الحاشية:
- ط١ هيئة الكتاب ٢٠٠٦. - ط٢ هيئة الكتاب ٢٠٠٩.

فى تاريخ ثورة ٥٢ وتراجم أعلامها:

• أهل الثقة وأهل الخبرة :مذكرات وزراء الثورة، ط٢، هيئة الكتاب ٢٠٠٨.
• نحو حكم الفرد: مذكرات الضباط الأحرار، دار الخيال، ٢٠٠٣.
• دهاليز الناصرية، ط١ دار الكلمة ٢٠١٤.
• عبد اللطيف البغدادى شهيد النزاهة الثورية، دار الخيال ٢٠٠٦.
• سيد مرعى: شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والإنفتاح، مكتبة مدبولى ١٩٩٩ .
• مذكرات وزراء الثورة، طبعة مختصرة مبكرة من كتاب «أهل الثقة وأهل الخبرة»، دار الشروق ١٩٩٤.
• مذكرات الضباط الأحرار ،طبعة مختصرة مبكرة من كتاب «نحو حكم الفرد»، دار الشروق ١٩٩٦.
• كيف رأت ثورة يوليو صورتها فى المرآة، مكتبة الشروق الدولية ٢٠١١.

فى تاريخ الحكومة المصرية :

• النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢-٢٠٠٠، مكتبة مدبولى ٢٠٠١.
• العصف المأكول: حكومات أسرعت بثورة ٢٥ يناير، مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٣.
• الهباء المنثور. السلطة والنخبة عقب ثورة يناير. مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٣.
• الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم (١٩٥٢-١٩٩٦)، ط١ دار الشروق ١٩٩٦.
• الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم (١٩٥٢-١٩٩٧)، ،ط٢ دار الشروق ١٩٩٧.
• البنيان الوزارى فى مصر (١٩٥٢-١٩٩٦)، ط١ دار الشروق.
• البنيان الوزارى فى مصر (١٨٧٨ - ٢٠٠٠):
- ط١ هيئة الكتاب، ٢٠٠٠. - ط٢ مكتبة الأسرة ٢٠٠٥.
• المحافظون:
- ط١، دار الشروق، ١٩٩٩. - ط٢ هيئة الكتاب ٢٠٠١.
• التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة ١٩٥٢-١٩٨١ ،الهيئة العامة للإستعلامات، ١٩٨٦.
• التاريخ يفشى أسراره: دراسات وآراء فى السيادة والسياسة، مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٣.

فى تاريخ الحروب العربية وتراجم اعلام العسكرية المصرية:

• النصر الوحيد: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣:
- ط١، دار الخيال ٢٠٠٠. - ط٢، دار الخيال ٢٠٠٠.
• الطريق إلى النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧.
- ط١ دار الخيال ٢٠٠٠. - ط٢ دارالخيال ٢٠٠٠.
• فى أعقاب النكسة: مذكرات قادة العسكرية المصرية(١٩٦٧-١٩٧٢، دار الخيال ٢٠٠١.
• عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط فى غير الحرب ،هيئة الكتاب، القاهرة ٢٠٠٤.
• صانع النصر :المشير أحمد إسماعيل:
- ط١ دار جهاد ٢٠٠٣. - ط٢ دار جهاد٢٠٠٥. - ط٣ دار جهاد ٢٠٠٥.

• الشهيد عبد المنعم رياض: سماء العسكرية المصرية، دار الأطباء، ١٩٨٤ طبعة مبكرة.
• مايسترو العبور: المشير أحمد إسماعيل، دار الأطباء، ١٩٨٤ طبعة مبكرة مختصرة من صانع النصر.

فى تاريخ العمل السياسى السرى وتاريخ اليسار المصرى:

• العمل السرى فى ثورة ١٩١٩ ..مذكرات الشبان الوفديين، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٩.
• تحت الأرض وفوق والأرض: غربة اليسار المصرى، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١١.
• يساريون فى عصر اليمين: مذكرات قادة الفكر اليسارى المصرى، هيئة الكتاب، ٢٠٠٦.
• فى ضوء القمر: مذكرات قادة العمل السرى والاغتيالات السياسية، مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٧.

فى تاريخ القانون والقضاء والمحاماة:

• محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء، دار الخيال، ١٩٩٩.
• فى رحاب العدالة :مذكرات المحامين ،هيئة الكتاب ٢٠٠٧.
• بحران لا يلتقيان ..السياسة والقانون بعد ثورة يناير، مكتبة الشروق الدولية،٢٠١٤.

فى تاريخ الامن القومى والسياسى:

• الأمن القومى لمصر :مذكرات قادة المخابرات والمباحث:
- ط١ دار الخيال. ١٩٩٩. - ط٢ دار الخيال ١٩٩٩.
• من أجل السلام: مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية، دار الخيال ١٩٩٩.
• قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢-٢٠٠٠):
- ط١ مكتبة مدبولى ٢٠٠١. - ط٢ هيئة الكتاب ٢٠٠٨.

فى تاريخ الحركة النسائية:

• الثورة والحرية :مذكرات المرأة المصرية، دار الخيال ،٢٠٠٤.
• مذكرات المرأة المصرية، طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «الثورة والحرية»، دار الشروق،١٩٩٥.

فى التنبؤ السياسى وصناعة القرار السياسى:

• الفلسطينيون ينتصرون أخيرا..دراسة فى التنبؤ السياسى، دار جهاد ٢٠٠٢.
• السياسة الغائبة فى ثورة حاضرة: متى تكتمل ثورة يناير؟ مكتبة الشروق الدولية،٢٠١٤.
• المسلمون والأمريكان فى عصر جديد، دار جهاد ٢٠٠٢.
• كيف أصبحوا وزراء.. دراسة فى صناعة القرار السياسى ،دار الخيال ٢٠٠٢.
• أحلام اليقظة: الصراع الاجتماعى فى ثورة يناير، مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٣.

فى الفكر والتاريخ التربويين:

• مستقبل الجامعة المصرية، هيئة الكتاب، ١٩٩٩.
• آراء حرة فى التربية والتعليم:
- ط١ هيئة الكتاب ٢٠٠١. - ط٢ مكتبة الأسرة ٢٠٠٥.
• الإصلاح الجامعى: الجودة من أجل البقاء، مكتبة الشروق الدولية،٢٠١٤.
• بناء الجامعات والأكاديميات :مذكرات رواد العلوم ،هيئة الكتاب، القاهرة،٢٠٠٦.
• محمد طاهر الدباغ: أستاذ الجيل فى السعودية، جدة ٢٠١٠.

فى الفكر التنموى والتاريخ الاقتصادى:

- التنمية الممكنة: أفكار لمصر من أجل الإزدهار، هيئة الكتاب، ٢٠٠١.
- الصحة والطب والعلاج فى مصر.
  - ط١ جامعة الزقازيق ١٩٨٧.
  - ط٢ هيئة الكتاب، ٢٠٠٥.
- مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الإعلام والبيئة والتنمية، ط٢، دار الشروق، ١٩٩٧.
- القاهرة تبحث عن مستقبلها، دار المعارف ٢٠٠٠.
- عقبات التنمية العربية: دراسة حالة حادة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٣.
- الآخرون أعمالا.. الاقتصاد والفساد فى مصر، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٣.
- ثلاثية السياسة والصناعة والفن، مذكرات أساتذة الهندسة. مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٣.
- الحلول الجزيئة هى الاجدى احيانا، طبعة مبكرة من كتاب مستقبلنا فى مصر، دار الاطباء ١٩٨٥.

مجموعات التراجم:

- مصريون معاصرون:
  - ط١، هيئة الكتاب ١٩٩٩.
  - ط٢ مكتبة الأسرة ٢٠٠٥.
- كيف أصبحوا عظماء... دراسات ورثاءات:
  - ط١ دار الخيال ٢٠٠٧.
  - ط٢ هيئة الكتاب ٢٠٠٨.
- تسعة عشر أستاذا وصديقا، تراجم ١٩ من أعلام مصر، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤.
- وشائج الفكر والسياسة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤.
- يرحمهم الله: كلمات فى التأبين، دار الأطباء، ١٩٨٤.

فى الدراسات الادبية واللغوية:

- كلمات القرآن التى لا نستعملها، ط١، دار الأطباء، ١٩٨٤، ط٢ دار الشروق ١٩٩٧.
- فن كتابة التجربة الذاتية، مذكرات الهواة والمحترفين، دار الشروق ١٩٩٧.
- فى ظلال السياسة.. نجيب محفوظ:
  - ط١ دار جهاد ٢٠٠٣.
  - ط٢ دار الخيال ٢٠٠٧.
  - ط٣ هيئة الكتاب ٢٠٠٧.
- على هوامش الأدب، هيئة الكتاب، ٢٠٠٢.

فى تاريخ الادب وتراجم الادباء:

- توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية، هيئة الكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٨٨.
- ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة: من بين سطور حياتنا الأدبية، دار جهاد، ٢٠٠٣.
- الثورة والإحباط: مذكرات أساتذة الأدب والأدباء، هيئة الكتاب ٢٠٠٤.
- فى حدائق الجامعة: مذكرات خريجى الجامعة فى عقدها الأول، هيئة الكتاب ٢٠٠٧.
- من بين سطور حياتنا الأدبية، دار الأطباء ١٩٨٤: طبعة مبكرة من ثلاثية التاريخ والأدب والسياسية.

فى تاريخ الثقافة والصحافة:

- مجلة الثقافة (١٩٣٩ -١٩٥٢ تعريف وفهرسة وتوثيق، هيئة الكتاب، ١٩٩٣.
- هل انتهى عصر الثقافة الوطنية؟، مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٣.

• فى خدمة السلطة: مذكرات الصحفيين، دار الخيال ٢٠٠٢.

فى مناهج كتابة التاريخ وتراجم المؤرخين:

• أدباء التنوير والتأريخ الإسلامى:

- ط١، ١٩٨٩. - ط٢ دار الشروق ١٩٩٤.

• النوافذ المتلونة فى كتابة التاريخ المصرى المعاصر، ط١ مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٣.

• الزوايا الكاشفة فى كتابة تاريخنا المعاصر، مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٣.

• النجوم المتعاقبة فى كتابة تاريخنا المعاصر، مكتبة الشروق الدولية ٢٠١٣.

الوجدانيات:

• أوراق القلب..(رسائل وجدانية)، ط١، دار الشروق ١٩٩٤.

• أوهام الحب: دراسة فى عواطف الأنثى:

ط١ : سلسلة كتاب الجمهورية أغسطس ١٩٩٩. ط٢ دار الخيال ٢٠٠٧. ط٣ هيئة الكتاب ٢٠٠٩.

فى ادب الرحلات:

• باريس الرائعة، الزهور والنور والعطور، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤.

• حياتى فى ألمانيا، ط١، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٤.

• أصداء باريسية فى ادبنا: باريس الفاتنة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤.

• الخيال صنع الحضارة: باريس الحيوية، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠١٤.

• شمس الأصيل فى أمريكا، ط١ دار الشروق ١٩٩٦، ط٢ دار جهاد ٢٠٠٣.

• رحلات شاب مسلم، ط١ دار الصحوة ١٩٨٧، ط٢ دار الشروق ١٩٩٥، ط٣ دار جهاد ٢٠٠٣.

فى التحقيق التاريخى:

• يوميات على مصطفى مشرفة (يناير١٩١٨ - يوليو١٩١٨)، مكتبة الأسرة ٢٠٠٣.

فى أمراض القلب:

• أمراض القلب الخلقية: الثقوب والتحويلات ٢٠٠٢.، دار المعارف ٢٠٠١.

• أمراض القلب الخلقية الصمامية ٢٠٠١، دار المعارف ٢٠٠١.

اعمال موسوعية

• القاموس الطبى نوبل، فى ٣ أجزاء (بالإشتراك مع أ.د. محمد عبد اللطيف)، دار الكتاب المصرى ١٩٩٨.

• دليل الخبرات الطبية المصرية وتاريخ التعليم الطبى الحديث، الجمعية المصرية للأطباء الشبان ١٩٨٧.

• الببليوجرافيا القومية للطب المصرى:

- ج١ :أمراض وجراحة العظام..الأكاديمية الطبية العسكرية، ١٩٨٩.
- ج٢: الجراحة العامة ...الأكاديمية الطبية العسكرية، ١٩٨٩.
- ج٣: أمراض القلب ....الأكاديمية الطبية العسكرية، ١٩٩٠.
- ج٤ : طب الأطفال...الأكاديمية الطبية العسكرية، ١٩٩٠.
- ج٥ :العلوم الطبية الأساسية ،الأكاديمية الطبية العسكرية ١٩٩١.
- ج٦ :الأذن والأنف والحنجرة...الأكاديمية الطبية العسكرية١٩٩١.

- ج٧: طب وجراحة العيون...الأكاديمية الطبية العسكرية، ١٩٩١.
- ج٨: الغدد الصماء ...الأكاديمية الطبية العسكرية، ١٩٩١.
- ج٩: الأورام، مركز الإعلام والنشر والتعريب ١٩٩١.
- ج١٠: أمراض النساء والتوليد، مركز الإعلام والنشر والتعريب ١٩٩١.
- ج١١: الطب الطبيعي، مركز الإعلام والنشر والتعريب ١٩٩١.
- ج١٢:الصحة العامة، مركز الإعلام والنشر والتعريب ١٩٩١.
- ج١٣:الصحة المهنية، مركز الإعلام والنشر والتعريب ١٩٩١.

كتب للطلائع والاطفال:

- مصطفى مشرفة، السلسلة الثقافية لطلائع مصر،المجلس القومي للشباب ٢٠٠٧.
- د. على إبراهيم: رائد الطب المصرى الحديث ،المجلس القومي للشباب ٢٠٠٨.
- المشير أحمد إسماعيل: من الميلاد إلى النصر، المجلس القومي للشباب، ٢٠٠٩.